الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بنى أمية، لما كان من اتخاذه لديوان الرسائل، وأتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانياً للخاتم[١] أو ختم الرسائل التي تصدر عنه الولاة، ويهمنا خاصة الديوان الأول: ديوان الرسائل، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه، بحيث يكونون في الذروة من البيان والبلاغة لزمنه، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب، ويذكر الجشياري إثباتا طويلة بأسمائهم. أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالى فاصبح كتابه من العرب، وسرعان ما عُنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخوا يشاركون في ديوان الرسائل[٢].

وما نصل إلى زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٤-١٢٤هـ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل في دمشق بيد مولى لهشام هو سالم[٣]، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسطاليس[٤]، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم ويقول أن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة[٥] واحتفظ الطبري برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسري، وهو تحمل عناية واضحة بالأسلوب وما يوفره له من الأزدواج والترادف الصوتي. وتبعه في النهوض بالرسائل السياسية تلميذان: أحدهما

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص٢٤.

(٢) انظر في ذلك الفن ومذاهبه في النثر العرى ص١٠٣.

(٣) الجهشيارى ص٦٢.

(٤) الفهرست ص١٧١.

(٥) انظر الفهرست ص١٧١، ١٨٢.

من بيته هو ابنه عبد الله، وثانيهما من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذي انتهت إليه رياسة ديوان الرسائل في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه، لبلاغته وقد ضُربت بها الأمثال، فقيل: "بُدئت الكتابة عبد الحميد وخُتمت بان العميد"[1] ويقول ابن النديم: "عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو الذي سَّهل سبيل البلاغة في الترسل[2]" ويقول المسعودى إنه "أول من استخدام التحميدات في الكتب[3] " واشتهر برسالة وجه بها إلى الكتاب، وهى تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكلون فئة بارزة في حياة الدولة والمجتمع، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية[4]. وكان يعرف الفارسية، ويقول صاحب الصناعتين إنه استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي[5] " وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية. وتحتفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية، ومنها رسالة[6] طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجه لمحاربة بعض الخوارج، وهى أشبه بكتيب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدبير شئونها من الوجهتين المادية والحربية. وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هي والشام جمعية ولاية تابعة للعباسيين، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر في عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين، بل لقد تعطل تماما، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكتاب كبير، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد، وأصبحت طوال القرون: الثاني والثالث والرابع متشدوين إلى ديوان بغداد وكتابه العظام، وأخذت الدولة الطولونية تعنى في الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبد كان وأضرابه، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئاً منه لم يسقط إلى الشام، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا، وظل كثير من بلدانا تابعا لمصر في زمن الدولة الفاطمية، ولم

(١) اليتمية للثعالبي (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) ١٥٤/٣.

(٢) الفهرست ص١٧٠.

(٣) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الرجاء) ١٧٨/٣.

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها.

(٥) الصناعتين (طبعة الحلبى) ص٦٩.

(٦) صبح الأعشى للقلقشندى ١٩٥/١٠ وما بعدها.

ينشا حينئذ في دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية، حتى إذا أظل دمشق حكم دولة الأتابكة البورين (٤٩٧- ٥٤٩هـ) رأينها تعنى بهذا الديوان، ويشتهر ببلاغة الكتابة فيه كتاب مختلفون، لعل أهمهم سني الدولة[١] ابن أخي الشاعر ابن الخياط الذي ترجمنا له بين شعراء المديح، ويذكر له العماد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليده، من ذلك قوله في منشور بالوزارة:

"لما كان محله عندنا خطيرا، ومكانه لدينا أثيرا، لا قرين يجاريه، ولا نظري يماثله ويُباريه، ولا متطاول يطمع في إدراك معاليه، شددنا بركنه أركانها، وسددنا به مكانها، وعوّلنا عليه فيها، واستنهضناه لتوليها، ورأينا كُفأها وكافيها".

وكتاباته على هذا النحو دائما مسجوعة سجعا فيه غير قليل من الشراقة والعذوبة. وكتب بعده لسلاطين دمشق البيوريين عبد الله بن أحمد الحميدي المعروف باسم أبن النقاد[٢] الكاتب الدمشقي، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود، وكانت له مدة يسيرة، وتوفى سنة ثمان أو تسع وستين وخمسمائة، ولم يذكر العماد شيئاً من كتاباته.

ويُظِل حلب ودمشق. وبلداهن الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١- ٥٦٩هـ) وكان وزيره ومتوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسراني، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح، ويقول العماد فيه:"كان نور الدين رفعه وأصطنعه، وبلغ منه مبلغا من الأمر كأنه أشركه في الملك معه"[٣] ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته في البلدان التي أظلها حكمه جاء فيه[٤].

"وقد علمتم- معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم- ما كان مرتبا من المظالم المجحفة بأحوالكم والمكوس والمستولية على شطر أموالكم، والرسوم المضيِّفة عليكم في أرزاقكم، والمؤن التي تساهمكم في منافع أملاككم، واستمر ذلك عليكم إلى أن فوض الله- عز

---

(١) انظر في سنى الدولة الخريدة (بداية الشام) ص ٢٢٧.

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٢٧/٧.

(٣) الخريدة ١٢٥/١.

(٤) انظر مفرج الكروب لابنواصل ٢٧٠/١ وما بعدها.

وجل- لنا- تدبير أموالكم، واسترعانا على كبير كم وصغيركم، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا، ولم نبتغ في إقراره على وجوهه شُبْهة ولا تأولا".

ويلي ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب. وكان من كتابه أبو اليسر[١] شاكر بن عبد الله المعرى كتاب الإنشاء بدمشق، واستعفاه من الخدمة سنة ٥٦٣ فأقام العماد الأصبهاني مقامه، وأضاف إليه- كما هو معروف- التدريس في مدرسته المعروفة باسم المدرسة النبورية الشافعية. ووصله القاضي الفاضل بصلاح الدين فرسم باسكابه في ديوانه بالشام، وسنفرد له ترجمة مجملة، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية في دمشق والشام غيّر منازَع. وتتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبي، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه. وكان بينهم غير مصري مثل ابن النبيه كاتب الأشرف موسى، وهو مشهور بين شعراء الغزل في مصر، ومثل عبد الرحم بن على، شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق، وله كتاب في عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه "معالم الكتابة ومغانم الإصابة" وهو مطبوع قديما ببيروت، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندى. ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا في إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق، ونذكر منهم تاج الدين احمد بن الأثير الحلبى المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد الظاهر بيبرس وقلاوون، وظل يترقى إلى أن ولى كتابة السر، ويقول ابن تغرى بردى: "لكلامه رونق وطلاوة" ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتحه لطرابلس واستيلائه عليه من أيدى الصليبيين نوه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الغارقين في اللهو، يقول[٢]:

"وكانت الخلفاء والملوك ما فيهم إلا مَنْ هو مشغول بنفسه، مكبٌ على مجلس أنسة، يرى السلامة غنيمة، وإذا عَنَّ له وَصْف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع في أبى اليسر تعرف القدماء بأبى العلاء ص٥٠٤.

(٢) النجوم الزهرة ٣٢٣/٧ وراجع في ترجمته ٣٤/٨.

الهزيمة، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من ملكه بالسكة والخطب، وأموال تُنهب، وممالك تذهب".

ويريد بالسكة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم في ختام خطاباتهم يوم الجمعة. وتولى بعده كتابة السر في القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفى سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين في عهد محمد الناصر بن قالاوون.

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندي في صحبه بنماذج كثيرة من رسائله وتوقيعاته الديوانية، وذكر هو نفسه منها طائفة في كتابه "حسن التوسل إلى صناعة الترسل" وذكر أبن حجر عن الصفدي أن رسائله تدخل في ثلاثين مجلدًا وأن بعض الفضلاء اختار منها مخلدين، ومن قوله في التهنئة بتقليد سيف[١]:

"وقلده مِنَنًا: سيفا تلمع مخايل النصر منغِمْده، وتشرق جواهر الفتح في فرنده، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حده، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهتْ عزائمه، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه، وعُلم أنه سيفنا الذي على عاتق الملك الأعز نِجاده وفى يد جبار السموات قائمة".

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفى مصر في دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخصه بكلمة، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموي المعروف بابن البارزي المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السر بها إلى أن توفى، وقد احتفظ القلقشندى له بعهد عن الإمام المستعين (الخليفة العباسي الميم بمصر حينئذ) للسلطان المؤيد شيخ، وفيه يقول[٢]:

---

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل طبع المطبعة الوهبية ص١٠٠. وفرند السيف: لمعان صفحته. والقوادم: رشات الطائر الكبار في جناحه. ونجاد السف: حمائله.

(٢) صبح الأعشى ١٢١/١٠ وانظر في ترجمته النجوم الزاهرة ١٦١/١٤.

"الحمد لله الذي جعل الدين بنصره مؤيدا،وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهقات عزمه بادئه بائدة العِدا، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زُويتْ له عوارف العدل ومعارف الفضل، فاستغنى ولله الحمد- بسعيد السعدا، واصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه، فأصبحت مأمونة الرداء، آمنة من الردى، وأمتن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسددا".

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح في هذه السطور، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جيعا، وهو إنا يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما في "بادئة وبائدة" و"أحكام وإحكام" و"الرِّداء: الثوب (كناية عن الأحوال) والرَّدَى: الهلاك. ويفسح أيضا للسجع الداخلى في السجعة مثل: "عوارف العدل ومعارف الفضل".

وعين ابن البارزى في ديوان الإنشاء أديباً مواطناً له هو ابن حجة الحوى المتوفى سنة ٨٣٧ وسنفرد له كلمة قصيرة، وخلف ابن البارزى في كتابة السر ابنه كما لالدين، وكان تارة يُعْزَل وتارية يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦.

وراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم في الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى اقاهرة في ديوانها الكبير كتاب كثيرون كانوا يكتبون لحكاكم ابلدان الشامية، وأهمهم كتاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية، ونذكر من كتابها علاء الدين على بن محمد بن سلما المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره ى وصف قلعة(١):

"لا ترى العيونُ لبعد مراماها إلا شَزْرا، ولا ينظر سكأنها العدد الكثير إلا نَزْرا، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بمالها من الأبراج، ولها من الفرات خندق يحققها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج".

ونذكر من أهم كتاب السر في دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفا، وهو كمالالدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله، تولى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح(٢) الدين بن الشهيد

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢. النظر الشرز: المستهين، فرات: حلو. أجاج: شديد الملوحة.

(٢) النجوم الزهرة ١٢٥/١٢

حتى توفى سنة ٧٩٣ وكان بارعا في الشعر وكتابة الرسائل، ونظم السيرة لابن هشام في رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت. ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمي المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها، ونقله معه المؤيد شيخ حين اصبح سلطاناً لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة: "كان إماما بارعا أديبا فصيحا ذكيا(١)".

وما زالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفى غيرها من بلدان الشام. ونقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابهين.

العماد(٢) الأصبهاني

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقر بها. وانتظم هو في سلك المدرسة النظامية مع لدته من الناشئة، وتفقه بها، وتثقف علوم العربية، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٢، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط. وتوفى ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه، ورُدَّت إليه حريته سريعا، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته، ورأى أن يفارقها، وولى وجهه نحو دمشق، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود، وقدمه قاضى دمشق كمال الدين بن الشهرزوري إلى أمير معهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب، فاكتسب حظوته وحظوة أبنه صلاح الدين، ثم قدمه القاضي إلى نور الدين فأعجب به وأتخذه صاحب سره، وبعث به رسولاً إلى الخليفة المستنجد ببغداد، ونجح في مهمته. وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريب في مدرسته النورية التي أنشأها بدمشق

---

(١) النجوم الزاهرة ١٢٢/١٤.

(٢) انظر في ترجمة العماد: معجم الأدباء ١١/١٨ وان خلكان ١٤٧/٥ والروضتين في مواضع مختلفة والجزء الثاني من مفرج الكروب لابن واصل وعبر الذهبى ٢٩٩/٤ والوافي بالوفيت ١٣٣/١ وطبقات الشافعية للسبكى ١٧٨/٦ والبداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزهرة (انظر فهرسه. وفى كايه: البرق الشامى والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له.

لدراسة الفقه الشافعي، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العمادية. ولم يلبث أن أضاف إليه رياسة ديوان الإنشاء. ولما توفى نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية انه إسماعيل العماد من وظائفه، فترك دمشق قاصدا بغداد، ومرض في طريق إليها بالموصل، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها، فعاد توا، والتقى بصلاح الدين في حمص، وقدمه إليه وزيره القاضي الفاضل، ورغبه في الحاقه معه بخدمته، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية. ولما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله. وزار مصر حينئذ، ثم عاد إلى دمشق فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفى سنة ٥٩٧.

والعماد الأصبهاني أديب كبير: كاتب وشاعر، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء، وكان يجيد الفارسية لغة موطنه ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالي. ومَّر بنا في حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفته التاريخية: كتاب البرق الشامي الذي وصف فيه أحداث حياته منذ إنتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتهما وهو في سبعة مجلدات، وكتاب الفتح القسي في الفتح القدسي وصف فتح صلاح الدين ليت المقدس، وكتاب نصرة الفطرة وعُصْرة القطرة في تاريخ السلاجقة ووزرائهم. وذكرنا ت في غير هذا الموضع- أن الفتح البنداري اختصره باسم "زبدة النصرة ونخبة العصرة" وأنه طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق. والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، وهو في شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته في أوائل العقد الثامن من القرن السالف. وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب الغنى والعقبي في بيان الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدن حتى سنة ٥٩٢ وكتاب نحلة الرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين، وكتاب خطفه البارق وعطفة الشارق في ذكر أحدا من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته. وقد عمم العماد في كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس، ما يدل- رغم ما فيها من تكلفة- على مهارة أدبية رائعة.

وكانت لـه رسـائل ديوانيـة كثيـرة تشـغل المجلـدات الضـخام، وكـان كلمـا فـتح صـلاح الـدين فتحـا دَحَـر بـه حَملـة الصـليب ومـزقهم تمزيقـا كتـب بـذلك إلـى الخليفـة ببغـداد وإلـى القـائمين علـى البـدان مـن الحكـام، بشـر بالنصـر المبـين فـي سـبيل الـدين. ونقتطـف قطعـة مـن كتـاب عـن صـلاح الـدين إلـى الخليفـة يخبـره فيـه بضـم الموصـل- بعـد مـوت صـاحبها غازي بن مودود- إلى دولته ومملكته، يقول فيه العماد:

"لإخفـاء أن مصـر إقلـيم عظـيم وبلـد كـريم، أنقـذها الله مـن عَيـد بنـى عُبَيْـد الفـاطميين وأطلقهـا بمطلقـات أعنتنـا إليهـا مـن عنـاء كـل قيـد، وفيهـا شـيعة القـوم، وهـم غيـر مـأموني السـر إلـى اليـوم. بهـا فتـق لأعضـل زنقـه، واتسـع علـى الراقـع خرقـه، واحتجنـا لحفـظ بـلاد الشـام وثغـور الإسـلام إلـى استصـحاب العسـكر المصـري إليهـا، ولـه خمـس سـنين فـي بيكارها (حربها منتقما من كفارها متحملاً لمشاقها على غلاء أسعارها).

وقـد جـانس العمـاد فـي أول القطعـة بـين "عَبيـد وعُبَيْـد" وبـين "أطلقهـا وبمطلقـات". وتـدل القطعـة دلالـة واضـحة علـى أن جـيش صـلاح الـدين المـدمر لحملـة الصـليب كـان مصـرياً علـى الأقـل فـي جمهـوره الأكبـر. ويـذكر صـاحب الروضـتين كثـرة مـا كـان يكتبـه العمـاد مـن البشـارات فـي كـل انتصـار لصـلاح الـدين علـى حملـة الصـليب، ومـا كـان أكثـر انتصـاراته، ويـذكر أنـه حـين فـتح بيـت المقـدس كـت العمـاد سـبعين باشـرة، وكانـت البشـارات رسـائل طويلـة بصـف العمـاد فيهـا المواقـع وصـفا تفصـيليا. ويسـوق المؤرخـون بشـارته بهـذا الفـتح العظـيم التـي كتـب بهـا إلـى الخليفـة ببغـداد، وفيهـا يقـول، بعـد إطنابـه فـي تحميـدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين.

"هـذا الفـتحُ العظـيم، والـنُّجْحُ الكـريم، قـد انقرضـت الملـوك الماضـية، والقـرون الخاليـة، علـى حسـرة تمنيـه، وجيـرة ترجيـه، ووحشـة اليـأس مـن تسـنيه (انفكـاك عقدتـه) وتقاصـرت عنـه طـول الهمـم، وتخالـت عـن الانتصـال لـه أمـلاك الأمـم، فالحمـد لله الـذي أعـاد القـدس (الشـريعة) إلـى امقـدس، وأعـاذه مـن الـرجس، وحقـق مـن فتحـه مـا كـان ف الـنفس، وبـدل حشـة الكفـر فيـه مـن الإسـلام بـالأنس، وجعـل عـز يومـه مـا حيًـا ذتـلَّ أمـس، وأسـكنه الفقهـاء والعلمـاء بعـد الجهـاد والضـلال مـن البطـرك والقَـسّ، وعبـدة الصـليب ومسـتقبلى الشـمس.. وأخـرج مـن بيتـه المقـدس يـوم الجمعـة أهـل أحمـد (يريـد يـوم الأحـد) وقمـع مـن كـان يقـول:

أن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح".

والطباق كثير في القطعة، والجناس ينثر فيها من حين لآخر. وقد يُكثر منه في بعض رسائله كثيرة مفرطة، بل هو أهم محسن بديعي أكثر من استخدامه، وعابه الصفدي بهذا الإكثار، متمثلاً بقوله في جواب مكاتبه:

"وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل فَيضه المستفيض، وتبلُّج (إشراق) وجه وجاهته وتارج (انتشار) نبأ نباهته ما عرفه من عَوارفه (فواضله) البيض".

يقول الصفدي معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة: "انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسفه في هذا الترتيب". ويقول السبكي معلقا على كلام الصفدي: "الأمر كما وصف، ولقد مج سمعي فواتحُ أبواب كتاب خريدة القصر، لما يكثر فيها من الجناس وردّ العجز على الصدر". على أن الصفدي نفسه يلاحظ أنه "حين يخلو كلام العماد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب في السمع وقعه، ويتسع في الإحساس صُقْعة (جانبه) ويرشف اللُّبُّ مدامه، ويكون عند مَن له ذوق أطيبَ من تغريد حمامه".

الصَّفدي[1]

هو صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدي، ولد بصَفد في فلسطين سنة ٦٩٦ وعُنى في أول حياته بصناعة الرسم، ثم أتجه إلى علوم الشريعة والعربية، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذهما عن كبار العلماء، وأولع بالأدب. وكان أول ما ولي من الأعمال كتابة الدَّرج بموطنه صَفد، يكتب ما يوقِّع به كبار الكتاب في دواوينها لجودة خطه، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها، وتركها إلى دمشق، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشاب الصفدي، وعيَّنه في كتاب الدَّسْتن حتى يعاونه

(١) انظر في الصفدي وترجمته النجوم الزهرة ١٩/١١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧٦/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٠٣/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/١٠ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٢٠٠/٦ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وخزانة الأدب ص ١٧ وفي مواضع متفرقة من صبح الأعشي وخاصة ٨٦/١٢، ٣٥١.

في عمله وما يتصل به من إنشاء بعض الرسائل، وأنعقدت صلة وثيقة بينه وبين أبن نباته، وتخرج على يديه شاعرا، كما تخرج على يدي الشهاب محمود كاتبا مجيداً. وتوفى الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو ما مرَّ بنا في ترجمته، وظل الصفدي يعمل في دواوين الشام، وعين رئيساً لديوان الإنشاء بحلب وقتا، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بتعين القادة وكبار الموظفين. وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال، واستمر في الوظيفتين إلى أن توفى بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته في الجامع الأموي للتدريس، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير.

ويقول صاحب النجوم الزاهرة: كان إماما بارعا كاتباً نظاماً ناثرا شاعرا، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين. ويقف الحموي في خزانته مرارا ليذكر أن ابن نباته لاحظ كثرة سرقاته لمعاني شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماه "خبز الشعير" يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله. وشعره في جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية، ومن طريق ماله قوله:

بَسهْمِ ألحاظهٍ رماني	فذُبْتُ من هَجْره وبَيْنِهْ
أن متُّ مالي سواه خَصْمٌ	فإنه قاتلي بعينِهْ

ويعد من أكبر لمصنفين في التراجم والأدب البديع والنقد، وعلى رأس مصنفاته في التراجم كتاب الوافي بالوفيات، وهو في نحو ثلاثين مجلدا، ونشرت طائفة من أجزائه. واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه "أعوان النصر وأعيان العصر" من الأدباء والشعراء وهو في ستة مجلدات، وفى دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة. وألف في مشاهير المكفوفين كتابه: نكْت الهِميْان في نكت العميان، وهو منشور. وله التذكرة الصفدية وهى مختارات أدبية وكتاب تشنيف المستمع في انسكاب الدمع: دمع المحبين والعشاق، وله في المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس، وله في النقد نصرة الثائر (وهو ابن أبى الحديد) على المثال السائل لابن الأثير، والغيث المسجم في شرح لأمية العجم، وهو شرح ملئ بالملاحظات النقدية، وبه دفاع بديع عن أن سناء الملك إزاء ما أتهمه به خصومه من استخدام

بعض الألفاظ العامية، وشَرحَ رسالة ابن زيدون الجدية بشرح سماه "تمام المتون". وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن، كما أن له عض مقامات، ويقال إنه كتب وصنَّف مثين المجلدات وخلف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع في مجلدين سجل فيه الرسائل بينها مجموع اسم ألحان السواجع في مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة بينه وبين أدباء عصره.

وكانت رسائل الصفدي الديوانية تشغل مجلدات كثيرة، ولم يحتفظ منها القلقشندي إلا برسائل قليلة، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرب وأوقاف وغير أوقاف، وله يقول باسم صاحب الأمر:

"لما كانت دمشق في الدنيا أنموذج الجنة التي وعد بها المتقون، ومثال النعيم للذين عند ربهم يرزقون، وهي زهرة ملكنا ودرة سلكنا. تعين أن ننتدب لها من جربناه بعدًا وقربا، وهززناه مثقفاً[١] وسللناه عَضْبا[٢] وخبناه في خزائن فكرنا فكان أشرف ما يُدَّخر، وأعز ما يخبا، كم نهى في الأيام وأمر، وكم شد أزرًا لما وزر، وكم عنيت به أيامنا عن الشمس ولياليها عن القمر، وكم علا ذُرَي رُتَب تعزّ على الكواكب الثابتة فضلاً عمن ينتقَل في المباشرات[٣] من البشر، وكم كانت الأموال جمادى[٤] فأعادها ربيعا غرد به طائر الإقبال وصفر. فليتلقَّ هذه الولاية بالعزم الذي نعهده، والحزم الذي شاهدناه ونشهده، والتدبير الذي يعترف الصواب له ولا يجحده، حتى يثمِّر الأموال في أوراق الحُسَّاب، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج في البحار وتفوت القطر من السحاب".

وواضح ما في السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم، ويلتمس الصفدي بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف، كما يلتمس بعض الاستعارات، ويبدو فيها غير قليل من التكلفة، كما يبدو التكلف أحيانا في اجتلاب

---

(١) مثقفا: سيفا مصقولا.

(٢) عضبا: قاطعاً.

(٣) المباشرات: الأعمال.

(٤) جمادي: رد قليلة.

السجعات. ومن توقيعاته توقيع كتب به لكتاب السر بدمشق: ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس في المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه:

"إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد[١] بها تتبين فوارس الجلاد في مضايق الجدال، وتتجلى بدور الكلام في مطالع الكمال، وتبدو شموس الجمال فيها لها من فسيح المجال، والمدرسة الناصرية- أثاب الله تعالى واقفها- هي الواسطة في عقودها. والدرة الثمينة بلا كُفْء لها بين قيِّمِ نقودها، قد تدبج فيها الباء وتأرَّج عليها[٢] الثناء، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء... فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد، والرجوع إلى الحق أسعف وأسعد".

وواقع ما في التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب في مثل "جلاد وجدال" و"كلام وكمال" و"جمال ومجال" و"أمدح وأحمد" و"أسعف وأسعد" كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا. ولم يكن الصفدى يتكلف دائماً مثل هذه الكلف في جناساته، بل هي تأتى عنده نادرة إذ كان سبه أن يأتى بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة في التكلفة. وكثير ن جوانب توقيعاته سلس سائغ. وكان محببا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة.

ابن حِجَة[٣] الحموى

هو تقوى الدين ابو بكر بن على بن عبد الله المعروف بابن حِجَّة الحموى، ولد بحماة سنة ٧٦٧ ونشأ بها، ودرس على شيوخها وأساتذتها، وأخذ عنهم فنون من العلم والأدب، وأرتحل إلى مشق والقاهرة يتزود من قات علمائهما وأدبائهم. وأنعقدت صلات كثيرة بينه وبين القاهرة، ويبدو أن عمل في دواوين حماة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى مواطنه كتاة السر بهما، وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين

---

(١) الطارق والتالد: الحادث والقديم.

(٢) تأرج عليها: عطرها.

(٣) انظر في ابن حجة وترجمته وشعر، ونثر، كتابه خزانة الأدب في مواضع كثيرة، والبدر الطالع للشوكاني ١٦٤/١ والضوء اللامع للسخاوى ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنعمان ٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٩/٧ والنجوم الزهرة ١٨٩/١٥.

أصبح نائباً لسلطان مصر بدمشق، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة أصطحبه معه وأتخذه كاتب سره كما مر بنا، وأصطحب ابن البارزي معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبى، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزي وحكم المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) وظل كاتبا للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من املك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر طَطر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباى سنة ٨٢٥ وتوقف أمره، فعاد سريعا إلى موطنه حماة، وظل بها مكبًّا على التصنيف والتأليف حتى توفى سنة ٨٣٧هـ.

واشتهر بقصيدته: البديعية في المديح النبوي وما حمَّل أبياتها من محسنات البديع لزمنه، وهى في مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات. وشرحها شرحا مطولا، متوسعا في سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البدعية، بحيث أصبح الشرح- كما سماه- خزانة أدب. وتعد مرجعاً أساسيًا للشعر والشعراء في زمن الأيوبين والمماليك حتى أيامه.وله في الديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام. وله كتاب أدب طريف سماه "ثمرات الأوراق" طبع مرارا يعرض يه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التي ينبغي أن تراعى في الكتابة الديوانية، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن نباته وأيضاً ببعض رسائله. والكتاب في مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر. واختصر بعض الأعمال، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزي سنة ٨١٣ كما ذكر في الخزانة باب إرسال المثل، وسمى مختصرة تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة. وله كتا متعددة مذكورة في كتا ابدر الطالع سقطت من يد الزمن. وله مقامة سنعرض لها في غير هذا الموضع، وكان شاعرا، كما كان كاتبا، وأنشد في الخزانة كثيرا من شعره، ويقول الشوكاني: "قد يأتى في نظمه بما هو حسن وبما هو في غاية الركة والتكلف.. ونثره أحسن من نظمه". وفى الخزانة رسائل كثيرة له، وخاصة في أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام. وفى "ثمرات الأوراق" كما أسلفنا- بعض رسائله، وجميع ما أنشأه أولاً الشام ثم ما أنشأه في عهد المؤيد ثم في عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصالح في كتاب سماه

"قهوة الإنشاء" في مجلدين، ومنه مخطوطة في دار الكتب المصرية، وفى الدار أيضا كتاب له محفوظ باسم تأهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء، ونقتطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ:

"ونُبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي عاملنا الله فيه بالحُسنى وزيادة، أجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عادة.. دقَّ قفا السودان فالرايةُ البيضاء من كل قِلْع(١) عليه، وقبَّل ثغور الإسلام وأَرْشَفها ريقَه الحلو فمالت غصَونها إليه. وحَضَنَ مشتهى الروضة في صدره وحنَا عليها حنُّو المرضعات على الفطيم:

وأرشفنا على ظمٍا زُلالاً ... ألذَّ من المدامةِ للنديمِ

وراق مَديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات، وأدخلته إلى جنات النخيل والأعناب فالق النَّوى والحبّ، فأرضع في أحشاء الأرض جنين النبت وأحياء له أمهات العصف والأبّ.. ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة النَّوى، وهامت به مخدرات (٢) الأشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى.. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة، وثَقُلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى وأطربت كالخائفة".

والسجع فيه عذوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لانحجة، وأنه كان كاتبا مجيدا أن لم يكن بارعا، وأطال السجعات ليحمِّلها ما ريد من التوريات، وهى كثيرة فياقطعة، وما نمضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر، يستغل ذلك في التورية بكلمة الأبيات فلا يريد أبيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن. واختار أمهات العف، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب مورّيا بها فهو لا يريد الأب الحقيقى كما يظن من ذكر الأمهات،

---

(١) يريد قلع السفن وشراعها.

(٢) المخدَّرات: النساء يلزمن بيوتهن احتجابا عن الرجال. والاستعارة واضحة.

وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذا من قوله تعالى: (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) واختار مع حلاوة اللقاء مارة النوى، وهو لا ريد نوى التمر الحقيقى وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام، وبالمثل يمكن أن يكون في كلمة الهوى توريه لأن لها معنيين: العشق واريح، وأيضاً في كلمة الجوارى توريه إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع ما يوشح لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية. وكان تعيين كبار موظفى الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم في شكل رسالة مطولة يكتبها منشئ الديوان، ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقينى الشافعى بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا علمه:

"هو أبو العلماء الذي ولد من الأم أفراحهم، وأبو المهمات الذي شَهَر من العُدَّة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم، وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا في وجيز تقريبه بالعجاب، ويغنينا عن موضح القشيرى فإنه يغذينا في إبانته باللباب.. وقد وقع النمويه في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رءوسها والمذهب الذي تهذيبه في أدب القاضي كفاية، وهو البحر الذي ما دخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل، ولا نظرنا إلى حليته الجلاية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل".

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعى، وقد بدأها في السجعة الأولى بذكر كتاب لأم للإمام الشافعى، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية في اختصار النهاية للعز بن عبد السلام، والنهاية هي نهاية المطلب في دراسة المذهب لإمام الحرمين الجوينى، واشار معه في نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالي وتقريب القفال الشاشى، ثم ذكر اللباب وهو اللباب وهو لباب الألباب للآمدى في أشار إلى التبصرة لأبى

إسـحاق الشـيرازى ونهايـة المطلـب المـذكورة آنفـا المـذهب لأبـي شـامة المقدسـى والتهـذيب للغبـوي وأدب القاضـى للمـاوردى والبسـيط للغزالـي والشـامل لإمـام الحـرمين الجـوينى. وقـد بلـغ ابـن حجـة مـن دقـة الصـنعة أن مـن يقـرأ الإشـارة إلـى هـذه الكتـب وغيرهـا ممـا جـاء فـي التقليد لايتنبه إليها إلا بعد رويَّة وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات.

٢

الرسائل الشخصية

مرَّ بنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم أتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الإسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس، وتهيأ لها حينئذ من كبار الكتاب من لا تزال أسماؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة[١] تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوب الجزل الناع مع السلاسة والعذوبة وما ما عُرف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان. ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم في القرن الثاني الهجرى وأوائل الثالث العَتَّابي كلثوم بن عمرو، وله بدروه-رسائل شخصية[٢] تموج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة. وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع في الرسائل الديوانية، فشاع في الرسائل الشخصية لسبب طبيعى هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين، وقد أصبح السجع دينهم ولغتهم في كتاباتهم فعمموه في رسائلهم الشخصية. ولعل كتابا في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتاة كما اشتهر أبو الفرج عبد[٣] الواحد بن نصر المعروف بلقبه "البَبَّغاء" المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعرا مبدعا وكاتبا بارعا، وفى كتاباته يقول الثعالبي "نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة" ويتضح ذلك فيما روى الثعالبي من رسائله كقوله مثنيًا، مطريا.

"شهابُ ذكاء، وطَوْد وفاء، وكعبة فضل، وغمامة بذلك، وحُسام ح، ولسان صدق، فالليالى بأفعاله مشرقة، والأقدار لخوفه مطرقة، تحمده أولياؤه، وتشهد له بالفضل

---

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت (طع ونشر مكتة مصطفى البابى الحلبى) ٢/٤٣٤ وفي مواضع متفرقة.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته ورسائله في اليتيمية ١/٢٣٦ وما بعدها، وراجع ترجمته في تاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٧/٢٤١وعبر الذهبي ٣/٦٨ وابن خلكان ٣/١٩٩.

أعداؤه". وقوله: "من كان جميل رأى سيدنا عُدَّتَه، أمن من الدهر شدته، ومن فَزِعَ إلى إحسانه، استظهر على زمانه، ومن توجه برغبته إليه، لم تقدم الأيام عليه".

(أ) رسائل أبى العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة، عُنيت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضى سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنات، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة. وأولاها رسالة المَنِيح وهو القِدْح الثامن من قِداح الميسر التي ليس لها نصيب في القمار، وكأنه كنى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجَّه بها إلى أبى القاسم الحسين بن على المغربى ردًّا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه ونراه يستهل رسالته بقوله:

"أن كان للآداب- أطال الله بقاء سيدنا- نسيم يتضوَّع[١]، وللذكاء نار تشرق وتلمع، فقد فَغَمنا[٢] على بُعْد الدار أَرَجُ[٣] أدبه، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلهبُّه، وخَوَّل[٤] الأسماع شُنوفا[٥] غير ذاهبة، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة، وذلك أنا- معشر أهل هذه البلدة- وُه لنا شرف عَظيم، وأُلقي إلينا كتا كريم، صدر عن حضرة السيد الحَبْر[٦]، ومالك أعنة النظم والنثر، قراءته نُسْك، وختامه بل سائره مِسْك، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون. جَلَّ[٧] عن التقبيل فظلاله المقبلة، ونزه أن يبتذل فنسخة المبتذلة،وإنه عندنا لكتا عزيز. ولولا الإلاحة[٨]، على ما ضمن من الملاحة، والخشيةُ على دُجَى مداده من التوزع، ونهار معانيه من التشتت والتقطع، لعكفت عليه

---

(١) يتضوع: يفرح.

(٢) فقمنا: ملأ أنوفنا.

(٣) أرج: شذى.

(٤) خول: أعطى

(٥) شنوفا:أقراطا

(٦) الحبر: العالم

(٧) جل: تنز،

(٨) الإلاحة:الإشفاق

ألافواة بـالّلُثْم، والمَـوارن(١) بالإنتشـاء(٢) والشـتم، حتـى تصـير سـطورة لمّـى(٣) فـي الشـفاه، وخيلانـا علـى مواضـع السـجود مـن الحيـاة،ولولا مـا حظـره الـدن مـن القمـار لضـربنا عليـه بالسـبعة الفـائزة، والثلاثـة التـي ليسـت لحـظ بالحـائزة.. فيـا شـرفه مـن صَـكٍّ بـالفخر، يَـبْجَحُ بـه علـى النُّظَـراء حِيـرِىَّ (٤) الـدهر، موشّـحًا بكـل شَـذْرة أعـذب مـن سـلاف العنقـود، وأحسـن من الدينار المنود، فجاء كلوائح البرو، أويوحَ (٥) عند الشروق".

وإذا مضـينا بعـد ذلـك فـي قـراءة رسـالة المنـيح- وهـى طويلـة- أخـذت أمـواج الألفـاظ الغريبـة تتـولى، حتـى ليصـعب علـى أى عـالم لغـوى أن يمضـى فيهـا دون أن يعـود إلـى المعـاجم يسـتبين منهـا مـا يقرأ لا مـن حين إلـى خـر، بـل مـع كـل سـجعة، بـل مـع غيـر لفـظ فـي كـل سـجعة، وكأنمـا كـان يطلبـه طلبـا فـي سـجعاته.أو كأنمـا كـان يعـده زينـة ينبغـي أن لا تخلـو منـه سـجعة. وهـو لـذلك يمـلأ الرسـالة بالألفـاظ الغريبـة المبعـدة فـي الإغـراب ممـا قـرأه فـي الشـعر القـديم وفـى كتـب اللغـة، ولا يهمـه أن يكـون الكلمـة مـا دُوّنَ فـي المعـاجم، بـل لعلـه كـان يطلـب ذلـك اسـتكمالاً لغرابتهـا، ومـن هنـا تصـبح قراءتـه صـعبة إلـى أقصـى حـدود الصـعوبة. ولـم يكـن يكتفـى بـذلك فـي بعـض رسـائله، فقـد كـان يضـيف صـعوبة ثانيـة هـي حشـد ألفـاظ المصـطلحات العلميـة وخاصـة مصـطلحات العلـوم اللغويـة علـى نحـو مـا تقـرا فـي رسـالته المعروفـة برسـالة الإغـريض وهـو مـا ينشـق عنـه الطلـع مـن الحبيبـات، والرسالة موجهة أيضا إلى أبى القاسم المغربى وفيها يقول:

"حـرس الله سـيدنا حتـى تُـدْغم الطـاء فـي الهـاء، فتلـك حراسـة بغيـر إنتهـاء.. وهمـا فـي الجهـر والهمـس، بمنزلـة غَـدٍ وأمـس، وجعـل الله رتبتـه التـي هـي كالفاعـل والمبتـدا، نظيـر الفعـل فـي أنهـا لا تـنخفض أبـدا، فقـد جعلنـى أن حضـرت عُـرف شـانى، وإن غبـت لـم يُجْهَـل مكـاني، كيـا فـي النـداء، والمحـذوف مـن الابتـداء، إذا قلـت زيـدُ أقبـلْ، والإبـلُ الإبـل، بعـد مـا كنـت كهـاء الوقـف، أن القيـتْ فواجـب، وإن ذُكـرت فغيـر لازب (٦)، إنـي وإن

(١) الموارن: الأنوف.

(٢) الانتشاء: شم الطيب ونحوه.

(٣) المى: سمرة حسنة في الشفة.

(٤) يبجح: يفخر. حيرى الدهر: أبد الدهر.

(٥) يوح: اسم الشمس.

(٦) لازب: لازم.

غدوتُ في زمن كثير الدَّدِ (١) كهاء العدد، لزمت المذكر فأتتْ بالمنكر، مع إلْفٍ يراني في الأصل كألف الوصل، وتكون تارة حرف لين، وتارة، وتارة مثل الصامت (٢) الرصين، فهى لا تثبت على طريقة، ولا تدْرَكُ لها صورة في الحقيقة".

وهون يدعو لأبى القاسم أن تظ تحرسه عاية الله إلى أبد الآبدين أو كما يقول إلى أن تدغم الطاء في الهاء وهي لا تدغم فيها أبدا، إذ الطاء حرف مجهور الصوت كما يقول- والهاء حرف مهموس لا يكاد وته يبين، فهما من طبيعيتين مختلفتين وكذلك لا يدغمان أبدا ولا يتحدان كالأمس والغد. ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب في الدولة، كرتبة الفاعل والمبتدأ في النحو، إذهما بسبب رفعهما في أعلى الرتب. ويدعو له أن لا يلحقه خفض في رتبه كالفاعل لا يلحقه خفض ولا جرُّ أبدا. ويقول أن أبا القاسم جعله معروفا رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فمكانها محفوظ ذكرت مع المنادى أو لم تذكر، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فمكانه محفوظ، فتقول: محمد أى يا محمد، وتقول كتاب الأدب أى هذا الكتاب الأدب. ويقول إنه كان بل أن يضعه أبو القاسم في منزلته الرفيعة كالهاء التي تلحق ببعض الكلمات في الوقف، مثل: لِمَ تقول فيها لمه، فهى تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن في الكلمة. ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو ما يلاحظ في هاء العدد أو تائه من ثلاثة إلى عشرة، فإنها تلحق عددها من المذكر وتطرح مع المؤنث، وكان القياس في العربية العكس. ولا يكتفى بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه، نذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط في درج اكلام. ويقول أن حالة كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا في لغة تميم، فيقولون في أن عَنْ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أو كما يقول "بين بين" وقد تسهّل تماما فتصبح حرف لين مثل ال في سأل، وقد تحقق وخاصة في أول الكلمات فلا تسهّل مثل أمر، فهى كما يقول ابن العلاء لا تثبت في العربية لى طريقة.

وأبو العلاء بذلك يصعب نصره على قارئه، بحيث لا يستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوى لكثرة الألفاظ الغريبة فيه، وليس ذلك فحسب، فإن هذه القطعة في الرسالة

---

(١) الدد: اللهو واللعب.

(٢) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والمد.

لا يستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمى النحو والصرف، وقد مضى في الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان. وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطئ بدار المعارف. وتتكاثر في الرسالة العارف عن المرأة وحليها ولا باس من إيداعها شيئاً من التاريخ. وكل ذلك يصعِّبها: سجع وأوابد لفظة وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى. وكأنما استأثرت بالشطر الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريضية. وتقل المصطلحات العلمية في بقية رسائله غير أنه لا يزال يستظهرها فيها من حين إلى حين، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برسائله إلى علماء في عصره، فكان يسوق إليهم هذه المصطلحات تصويراً لمهارته البيانية. وتحفل الرسائل بنقد خلقى واجتماعى وسياسي وأدبى، وأكثرها في الثناء على من يكتب إليهم، وبينها رسائل شافعة وتهنئة وتعزية وشوق، وتكتظ بسجعات بديعة كقوله في فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبى طاهر المشرف بن سبيكة الحلبى:

"شوقى إلى سيدى الشيخ شوقُ البلاد المُمْحلة، إلى السحابة المُسْحلة (١)، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة، بالأمواه الغريضة (٢)، وتشوفى لاخباره تشوف راعى أنعام(٣) أجدب في عام بعد عام، لبارق (٤)، هَوْلهُ مرتقب مُمان (٥). وأسفى لفقده أسف وَحْشِيَّة (٦)، رادت (٧) بالعشية، فخالفها السرحان إلى طلا (٨) راد فحار (٩) فهى تطوف حول أميل(١٠)، وترى صبرها ليس بجميل. وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدْى

---

(١) المسلحة: الممطرة.

(٢) الأريضة: الطيبة. الغريضة: المبكرة.

(٣) الأنعام: الأبل.

(٤) البارق: السحاب يلمع فيه البرق، وجعله يميناً حتى لا يخلف مطره.

(٥) ممان: متطاول

(٦) يريد بقرة وحشية.

(٧) رادت: ذهبت تطلب الكلأ.

(٨) الطلا: ولد البقر. السرحان: الذئب.

(٩) حارها: تحير.

(١٠) أميل: كثيب عالز

الوالـدة، والمقسـم بـالملح لبنـى خالـدة انتظـارى لقدومـه انتظـار تـاجر مكـة وَفـدَ(١) الأعـاجم، وربَّ الماشية ظهورَ النَّبْت الناجم(٢)"

وبـدون ريـب تُعَدُّ رسـائل أبـى العـلاء الشخصـية فـي الـذروة مـن البلاغـة، وهـو دائمـاً يُعْنـى فيهـا بالسـجع إلـى قليـل، وقـد يلتـزم فيـه مـالا يلـزم كمـا فـي هـذه القطعـة، فـإن السـجعتين فيمـا تتفقـان لا فـي الحـرف الأخيـر فحسـب المقابـل للـروى فـي الشـعر، بـل فـي حـرفين أو ثلاثـة حـروف، ودائمـاً نلتقـى فـي رسـائله بالألفـاظ الآبـدة الممعنـة فـي الغرابـة وإن لـم تمعـن فيهـا بهـذه القطعـة. وهـو يسـتغل فـي سـجعاته معارفـه الكثيـر التاريخيـة وغيـر التاريخيـة علـى نحـو مـا يلقانـا فـي هـذه القطعـة مـن إشـارته إلـى أن العـرب كـانوا يعتقـدون ويتعاقـدون علـى الملـح، وذكـر عهـدًا لهـم أقسـموا فيـه بـالملح لبنـى خالـدة وهـى خالـدة بنـت أرقـم أم كـردم وكريـدم ابنـى شـعبة الفـزاريين. والجنـاس النـاقص مثـل: "الممحلـة والمسـحلة" واضـح فـي القطعـة، وكـان يوشـى سـجعاته بـه وبغيـره مـن محسـنات ابـديع وخاصـة الطبـاق والتصاوير.

(ب) رسائل متنوعة

طبيعـى أن تكـر الكتابـات الشخصـية علـى السـنة الأدبـاء شـاكرين صـنيعا و مهنـين علـى منصـب كبيـر أو معـاتبين أو مثنـين مـادحين أو معتـذرين أو مسـتعطفين أو معـزين عـن خطـب ألـم بأصـدقائهم أو فـي فقـد عزيـز، وتـارة يؤبنـون وتـارة بيكـون وقـد خنقـتهم العبـرات. وكثيـرا مـا كـانوا يتراسـلون، مـن ذلـك مراسـلات الطغرائـى الشـاعر الكاتـب والغـزى إبـراهيم بـن عثمـان الـذي مـرت ترجمتـه بـي الشـعراء ويقـول العمـاد الاصـبهاني "كانـت بينهمـا مكاتبـات مفيـدة وبينهمـا لنسـب الفضـل المـودة الوكيـدة" ويسـوق العمـاد للغـزى رسـالة أعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها (٣):

(١) يريد: قدوم وفود الحجيج الأجانب.

(٢) الناجم: الذي لا ساق له.

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٢٧/١.

لسان الحسود– أدام الله أيام المجلس السامى دام ساميا، ولبَيْضة المجد حاميا– إذا علق بِعرْض الكرام كان كالنار في المندليِّ [١]، يبروح بسرِّ طيِّه الخفيّ.. فإن وقع من السفهاء إفك فداعيته ما ظَهر لهم من إنتمائه، وانتساب مُزْنته إلى سمائه".

وانتخاب الغزي لألفاظه واضح، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر، وهوي عنى فيها بالتصاوير، وكان خصب الخيال، ومرت بنا في ترجمته روائع طريفة من أشعاره. وكان ابن منير الطرابلسى الذي ترجمنا له بين الشعراء نزح عن دمشق إلى قلعة شَيْزر في الشمال خوفا من ابن الصوفى وزير حاكمها آبق، وحاول صديق له هو زين الدين بن حليم أن يسترجعه إلى دمشق نكتب إليه يستدعيه، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرة يقول فيها [٢]:

"أن جراحى إلى الآن لم تذق حلاوة الاندمال، وقُروحها تزداد قَرْحا مع الحلِّ والترحال، وبين جوانحى من الأين [٣]، لما لقيتُ بدمشق من الغَبْن، مالا يحلُّه إلا عَقْدُ الكفن، ولا يرفع حَدثه إلا التيممُ بصعيد [٤] المدفن. وبلقاك فلان وفلان من كل ذى خَلْق دَميم [٥]، وخلق نعيم، وأصل لئيم، ورفع زَنيم [٦]، ووجه لَطيم، وقفًا كليم [٧]، وهلم جَرّا من عذاب أليم، وصراط في الود غير مستقيم".

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة، وكا كان شاعرا بارعا كان كاتبا بارعا، تواتيه الكلمة وتنزل في مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذي لا تطول عباراته، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجمالها في الجرس وحسن أداء. ويورد العماد في الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكتابه وبين أسامه بن منقذ،

---

(١) المندليّ: عود الطيب.

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٩٢/١.

(٣) الأين: العناء.

(٤) الصعيد التراب.

(٥) دميم: قبيح. ذميم: مذموم.

(٦) زنيم: دعىّ

(٧) كليم: جرىح.

ويذكر أولاً كتا القاضي الفاضل ثم يذكر جواب أسامة، وله يقول من رسالة طولة ما دحا مثنيا على بلاغته، متحدثا عنه بضمير الغيبة (١):

"ما عسى أن يقول مطرية وما دثحه والفضل نُغْبة من بحره الزاخر، وقطرةٌ من سحابه الماطر، تفرد به فما له فيه من نظير ن وسبق من تقدمه في زمانه الأخير، فتق عن البلاغة أكمامًا تزينت الدنيا منها بالأعاجيب، وأتى بآياتِ فصاحةٍ كادت أن تُتْلى في المحاريب، إذا استُنْطقتْ أزدحمتْ عليها العقول والأسماع، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع.. هو سحر لكنه حلال، ودُرٌّ إلا ن بحره حُلو سلسال".

ونمضي إلى أيام المماليك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم في دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له ين شعراء المديح، وله– كما أسلفنا– كتاب في رسوم الكتابة الديوانية، وبه كثير من رسائله الرسمية، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية، ماه "حسن التوسل إلى صناعة الرتسل" وله بجانب كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه "زهرة الربيع في الترسل البديع" وعنه يقل كثيرا القلقشندى في الجزء التاسع من صبحه، ومما نقله عنه رسالة في التهنئة بعيد الأضحى جاء يها (٢):

"جعله الله أبركَ العياد وأسعدها وأيمنَ الايام وأمجدَها، وأجمل الأوقات وألذها وأرغدها ولا برح مسرورا مستبشرا، منصوراً على الأعداء مقتدرا، مسعودا محمودا، معانا بملائكة السماء معضودًا، ومهنا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة، والقوة والناصر، والعمر الطويل الوافر ألبسه الله من السعادة اجمل حلة، ومنحه من المكارم أحسن خلة".

وكان الشهاب محمود يعني بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى في قوله: "مهنًأ بالسعود الجديدة والجدود السعيدة".

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١.

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩.

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتبا، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨، وفيها يقول (١):

"بلغنى أنهدادُ الطود الشامخ، وزوالُ الجبل الراسخ، الذي بكته السماء والأرض، وقابلت فيه المكروهَ بالندب وذلك فرض، فشَرِقَتْ (٢) أجافن المملوك بالدموع، وأُخْرِق قلبه بين الضلوع، فالعلوم تبكيه، والمحاسن تعزَّى فيه، والأقلام تمشى على الرءوس لفقده، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده.. ولا خاصَّ إلا حزن قلبه، ولعامّ إلا طار لُبُّه".

وكان يجنح في نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية، وقد تصنع في هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية: المكروه والندب والفرض، وأيضاً فإنه كان يعنى يجلب صور مختلفة من التوريات، وواضح أنه ورَّى هنا بالمصطلح الفقهى: الندب عن معناه الحقيقى وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسبنه. وجعل الأقلام تمشى على رءوسها حزنا وهى فعلا تمشى على رءوسها أو بعبارة أخرى تكتب برءوسها، فاستغل ذلك في تعزيته.

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيا سكينا أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله(٣):

"الملوك يُنْهى وصول السكين التي قطع بها أوصال الجَفا، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البُرْ ولاشفا، وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام ن تقشيرها إلى الحَفا.. ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب (٤)، وذلَّ بعد أن خضعت له الرءوس والرِّقاب.. أنملة صبح تقمعت بسواد الدجى، فعوذتُها بـ (وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ).. تَطْرف بأشعتها الباهرة عين شمس، وبإقامتها الحدَّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس".

---

(١) انظر ديوان عمر بن الوردى، طبع الجوائب في مجموعة سنة ١٣٠٠ هـ ص١٦٣.

(٢) شرقت: غصَّنت.

(٣) خانة الأدب للحموى ص ٢٥، ٥٢٧.

(٤) نصاب السكين: مقبضها.

والتكلف واضح في القطعة، فقد ذكر الجفا أى البعد، وفكر في سجعة معه فجاء بالشفا والحفا وأصله رقة الخف ويريد المبالغة في تذيب الألقام، وكل ذلك تكلف، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الحلاق. وكان نصاف السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين وورى أيضا بمواظبة الخمس إذ لا يريد امعن التبادر من مواظبة الصلوات الخمس، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام.

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة في تراجم الأدباء، من ذلك قول مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة في معاتبة(١):

"الصديقُ لفظ على الألسنة موجود، ومعناه في الحقيقة مفقود، فهو كالكبريت الأحمر، يّذكر ولا يُبْصَر، أو كالعنقاء والغول لفظ يوجد بلا مدلول. وهذه شيم غالب أبناء الزمان، من الأخلاء والإخوان، فمثلهم.. كلمع السراب، المستحيل فيه الشراب، أو كالخيال الذي يبدو في المنام، وهو في الحقيقة أضغاث أحلام".

ويسوق المحبي في نفحة الريحانة رسائل مخلفة لأبيه وجدِّه، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية. وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبي وبين عبد الغني النابلسي الصوفى، وله يقول متردداً مثنيًا مشيدًا بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحى(٢):

"مولاى الذي سار في بروج الفضل مسير الشمس، وقامت فضائله في جسم العالممقام الحواسِّ الخمس، لازال في السكون والحركة، مرافق اليمن والبركة، يفرح به كل قطر ينازله، كأنه البدر والدنيا مَنازله، ومن شايعه مسعودٌ يومه وغده، وله من

---

(١) نفحة الريحانة للمحبى ٢٤٧/١.

(٢) نفحة الرحانة ١٣٩/٢.

العـيش أهنــاه وأرغـده.. أنــا شـعبة مـن دَوْحتـك[١]، وغصــن مـن سَـرْحتك[٢]، بـل نَبْـتٌ سـقتْه أياديك، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك"[٣].

ويطبــع نثــر الرســائل الشخصــية حينئـذ بـنفس الطوابــع التــي رأيناهــا فــي أيــام المماليـك، فهو يعتمد دائما على السجع، يوشى بالبديع ومحسناته.

(١) الدوحة: الشجرة الكبيرة المتشبعة.

(٢) السرجة:الشجرة الطويلة العظيمة.

(٣) الغوادى: السحب.

٣

المقامات

كان لبديع الزمان الهمذاني فضل السبق إلى استحداث فن المقامات في العربية، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لا يزال يحتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كي يسبغوا عليه شيئاً من عطائهم يعينه على سدِّ حاجته في الحياة. وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى. وتبعه الحريري فأوفى بهذا الفن على الغاية، سواء من حيث جمال القَصِّ فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوى والاديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته. وطبيعى أن لا تعرف الشام– مثل بقية البلدان العربية– المقامات قبل بديع الزمان، بل أيضا قبل الحريري المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة، ويبدو أنها ظلت طويلا لا تعرفها أو على الأقل لا تحاول محاكاة الحريري وبديع المان فيها، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغوية حتى منتصف القرن السابع الهجرى ألهاها عن هذا الفن، حتى إذا أخذت الاحوال السياسية تستقر فيها الأيام المماليك وجدناها تعنى به، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثاني من القرن السابع، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريرى، وإذا لا عتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتيالاته الأدبية قَصًّا حواريا، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة ين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقام في مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قرناص الحموى المتوفى حوالى ٦٧٢. وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمسانى الذي ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق، وفيها يصور شغفه باللهو

والتنزه في الرياض ولقاء فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارًا طريفًا، وهو يفتتحها على هذا النمط [١]:

"لم أزل مذ بلغت سن التمييز، أتولَّع بنظم الأراجيز، ومذ شبَّ عمرى عن الطَّوْق، مُغْرى بالغرام والتَّوْق، وأهيم بالشَّمول [٢] والشمائل، واشرب في زجاجه صفراء كالصائل، وأقدم على رشف ثغور البيض.. وأتنزه في كل ناد وواد.. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض[٣]، ووَلجت [٤] بين حياض ورياض".

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذي مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة [٥] العشاق، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف. ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة. وسنخضه بترجمة قصيرة، وللصفدى فيها حريق دمشق الذي أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمائرها لسنة ٧٤٠ ومن قوله في تلك المقامة اللمتاعة[٦]:

"سألت عن الخبر، ممكن غبر، فقال أن الحريق وقع قريبا من الجامع، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عَقائقُ [٧] اللهب اللامع، فبادرت لى صَحْنه والناس فيها قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك لانار كما يذوب الشحم، وريت النار وقد نشرتْ في حداد الظلام مُعَصْفراتِ [٨] ذوائبها، وصعدت إلى السماء عَذَباتُ ذوائبها.. وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهى (**تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**)، فكم زمر أضخت لذلك الدخان جاثية، وكم نفس كانت في النازعات وهى تتلو (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) ولم تزل تأكل ما يليها وتفنى ما يَسْلفها ويعتليها".

---

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان التلعفرى (طبع المطبعة الأدبية ببيروت).

(٢) الشمول: الخمر.

(٣) الغياض: أماكن الشجر الملتف.

(٤) ولج: دخل

(٥) فوات الوفيات لابن شاكل ٥٦٥/٢.

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار الكتب المصرية) ٢٠١/١.

(٧) عقائق: جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه به الصفدى اللهب.

(٨) معصفرات: مصبوغة بالعصفر، وهو صبغ أصف.

وواضح في سجعاته طلبه لجناس. فهو يجانب بين الخبر وغبر، والجامع واللامع، واللحم والشحم، ويمضي في مثل هذه الجناسات الناقصة، واشتهر لزمنه بالتصنع الشديد للجناس. وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة ن الذوبان جمعًا لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر في الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعى يتصنع لذكر العذبات وهى أطراف العمائم التي تطرح عليها، وتكلف أشد التكلفة حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذي إبتُليت به دمشق وأهلها بلاء عظيما. وإنما اغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (**تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**) وهى في وصف جهنم وما يتصاعد من شررها ووقودها كالقصر في ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق. وقدى مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السو، فذكر (الرمز) أى الجماعات و(الدخان) و(الجاثية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول، كما ذكر (النازعات والآية الأولى من سورة (الغاشية) والغاشية القيامة.

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضعا لها وصف حريق دمشق، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القَصّ والحوار، وكأنها تختص بموضوع أدبى تعالجه. وغلب عليها ذلك أيضا في أيام العثمانيين ونلتقى في نفحة الريحانة للمحبى بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد ارحمن بن محمد الدمشقى من بنى النقيب، وفيها تتوالى، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو.[١]

"نَرْجِسٌ نَعْته الفتور، وورد كأنما أنتزع من أوجه الحُور.

وشَقيقٌ كأنه أقداح العقيق [٢]، قد رسب بقرارتها مِسْكٌ فَتيق

وآذَرْيون [٣] كأنه مداهن عَسْجدٍ، على سواعد زبرجد

وسوسن كبياض السوالف، أو جياد [٤] الوصائف

وقَرَنْفلٌ كأنما توقَّد بالجَمْر، وأنعقد من الخمر"

---

(١) نفح الريحانة ٢/٣٥.

(٢) العقيق: حجر كريم أحمر. فتيق: فائح.

(٣) الآذريون: زهر شديد الصفرة. والعسجد: الذهب.

(٤) جاد هنا: جمع جيد أى عنق.

ويظل طويلا في وصف الأزهار، ويخرج منها إلى وصف الأطيار، بمثل هذه الأسجاع المليئة بالتشبيهات والاستعارات.

وروى المحبي لعبد الغنى النابلسى الصوفى الذي مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق عثرا فيها عن قصر علالى البنيان فدخلاه، يقول (١):

"فصعدنا إلى قصر مَشيد (٢)، مزخرفة الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشيد (٣)، وفيه الغرف الرفيعة ذات التزيين، والمقاصر المصنوعة لقاصرات (٤) الطرف عين. قد طلت شبابيكه على تلك الأرجاء الموفقة، والجداول المتدفقة، وأرضه مفروضشة بأفرخ الوشى والديباج، وقد أطلق فيه مباخر الطب فزاد في الأبتهاج. فحلست أنا وصاحبى على تلك لاأرائك الممنوعة (٥)، والرش المرفوعة، نتناشد الأشعار، ونتشبَّث بأذيال ألافكار".

ويلقاه هو وصاحبه رفيق، فيساله اين كنت؟ ومن أين توجهت ؟ وما يلبث أن يقول له: وما ذلك القصر الموصوف سوى جُبَّتى هذه وثوبى هذا الصوف، والشبابيك جيويه وأطواقه، ولا عجب أن نَفَحْت فيه مباخر لطيب فإنها قراطيسه وأوراقه،. وكأن كل ما في المقام رموز صوفية جلاها عبد الغنى النابلسى في تصاوير الرياض والقصر وتهاويله. وحري بنا أن نقف قليلا عند ابن الوردىّ أهم كتَّاب المقامة الشاميين.

ابن(٦) الوردىّ

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى، ولد في المعة بلدة أبى العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها، ويقول ابن حجر في الدرر: بل نشا بجلب وهو حاضرة إقليم المعرة، وخاصة على قاضيها وقيهها ومفتيها الشافعي شرف الدين البارزى. وتنقل في بلاد الشام يأخذ عن شيوخها، وعرف فضله في الفقه والفتوى،

---

(١) نفحة الريحانة ١٥٢/٢ وما بعدها.
(٢) نفحة الرجانة ١٥٢/٢ وما بعدها.
(٣) مشيد: عال مرتفع.
(٤) الشيد: كلّ ما طُلى به البناء من جصّ وغير،
(٥) قاصرت الطرف: خجلات حبيبات. وعين: جميلات واسعات الأعين.
(٦) الديوان (فى مجموعة طبعة الجوائب) ص١٣٣.

فولاه ابن الزملكانى قاضى قضاه الشام قضاء حلب، وكان شاعرا. وله في ابن الزملكاني مدائح كثيرة، واعترافا منه بصنيعة. ورأى ابن الزمكاني فيما بعد عزله عن حب وتوليته قضاء منبج، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويولى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩. وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا. فقد نظم كتاب الحاوى في الفقه الشافعى في منظومة بلغت كثر من خمس ألاف بيت، وله مصنفات لغوة ونحوية، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى. وهو معدود في شعراء القرن الثامن النابهين، ويقول ابن شاكر: "أجاد في المنثور والمنظوم، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية"ز وديوانه كبير وهو مطبوع في الآستانة من قديم، وله بعض برباعيات وبعض موشحات، أنشد منهما السبكى في ترجمته، وله خمس مقامات، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه، وفى رأينا أن نثره أروع من شعره، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبدع ماله من كتابات أدبية، ونقصد مقاماته.

وأولى المقامات في الديوان المقامة الصوفية، ومنها يُجْرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدسى وبيت عشرة من الصوفية في مقدمتهم شيخ كبير، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية، وأشركوا معهم في الحديث هذا الوافد المعرى، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم او الشيخ يجيب. وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لا يتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول: "أن المتصوفة اليوم أصحاب أكل وشرب ونوم، يروون الأقوال ولا يتبعون ألافعال، وأفقوا أسلافم ملبسًا، وخالفوهم أنفسا". والمقامة طريفة في عرضها لأحوال الصوفية في تلك الأيام، وحري بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على اسلوب ابن الوردى في مقاماته، يقول (١):

"حكى إنسان، من معرَّة النعمان، قال: سافرت إلى القدس الشريف، سفر منكر بعد تروع حصاة حالية العّذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء، وإذا عين كعين الخنساء تجرى

(١) الرمضاء: شدة الحر.

علـى خـر، ويقـول ماؤهـا أنـا سـيد ميـاه هـذا الـوادى ولا فخـر، وفروَّيـت كبدَ صـادٍ [١] مـن تلك العين، ولكن تُغِّص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين".

وقـد تصـنع ابـن الـوردى فـي أول مقامتـه لمصـطلح التعريـف والتنكيـر فـي النحـو، ولـم يلبـث أن اقتـبس فـي وصـف الـوادى ألفـاظ بيتـين مشـهورين مـن الشـعر فـي وصـفوادللمَنـازى معاصر أبى العلاء إذ يقول:

وقانا لفحةَ الرَّمضاء وادٍ سقاه مضاعَفُ الغيثِ العَميمِ

تروع حَصاه حاليةَ العَذارى فتلمسُ جانب العقد النظيم

واشـتهرت الخنسـاء بكثـرة بكائهـا لـى أخيهـا صـخر فاسـغلَّ ابـن الـوردى ذلـك فـي التوريـة عـن هـذه العـين الحقيقيـة التـي تجـرى مياهـا علـى الصـخر، ويقـول أن منظرهـا الحسـن ذكـره بحادثـة الحسـين ومقتلـه فـي كـربلاء وطلبـه المـا مـن أعدائـه ومنعـه عنـه وروحـه تصـعد إلـى بارئهـا.ولـم نمـض قـراءة المقامـة لنـراه و يقتـبس آى الـذكر الحكـيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة.

وسـمى ابـن الـوردى مقامتـه الثانيـة المقامـة الانطاكيـة، واتخـذ فيهـا أيضـا شخصـا مـن المعـرة يزورهـا ويصـف محاسـنها ومحاسـن الطبيعيـة مـن حَولـه، ويحمـد الله علـى أن ردهـا من حملة الصليب إلى العرب، وياسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم.

والمقامـة الثالثـة سـماها المقامـة المنبجيـة، ومنـبج إحـدى القرى الكيـرة فـي حلـب، وفيهـا يحكـى أيضـا شـخص مـن العـرة أنـه دخلهـا فرثـى لمـا اصـاب مسـاجدها وأبنيتهـا مـن دثـور. وكـان حملـة الصـليب قـد اسـتولوا عليهـا قـديما وعـاثوا فيهـا. ويلـم ابـن الـوردى مدرسـتها النوريـة، فـإذا مدرسـها القاضـى حـدث السـن، فظـن أنـه لـيس بشـىء، فلمـا سـاله عـن حاجتـه قـال: "نحـن عشـرة ذوو نسـب وأولـوا علـم وأدب، وقـد أنشـد كـل منـا بيتـى شـعر، سـامها [٢] فضـل سـعر، وأقـام وزنهمـا، وقـال إنهمـا وإنهمـا، وأنـا رسـول أصـحابى إليـك لتنصـف بيننـا وقـد دُللـت عليـك" فقـال لـه: قـل مـا أردت أن تقـول، فأخـذ يعـرض عليـه أبياتـا فـي الغـزل

---

(١) صاد: عطشان شديد العطش.

(٢) سامها فضل سعر. غالى بهما في السعر.

وغير الغزل، والقاضى يعلق تعليقات نقدية بديعة. وحينئذ رجع المعرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس، وأطال شكره.

وسمى المقامة الرابعة المشهدية وفيها يلقى شخصٌ معرِّىٌّ أمرا يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة وما يجرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس، وبنهاه الأمير عن الاشتراك في هذه البدع المحرمة، وينوه بقاضى القضاة ابن الزملكاني الذي أمر بإبطالها وشدد في النكير عليها، ويدعو له قائلاً:

"لازال نداه (١) مثل حرف النداء، كفيلا بضم الأقربين والبعداء، ومن وُصل به نال عُرفا (٢)، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفا، حتى يكون علمه علما منصوباً، وعواطفه للمعارف خبرا مبتدأ به منسوبا، ولا برح مرفوعا بفعل الحسنى، وسيوف بحوثه ماضية فهى على الفتح تُبْنَى".

وواضح مدى ما تكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو في عبارات الثناء على ابن الزملكاني وسجعاته، وفلا زال ابن الزملكاني مثل حرف النداء في النحو ينادى به القريب والبعيد، والتابع مفرد والتوابع، وهى العطف والنعت والتوكيد والبدل، ولذلك ذكر مع التابع العطف، وجلب من النحو كلمة "منصوباً" واراد بها أن العلم مرفوع، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح. كل ذلك حشده في هذه السجعات القليلاة، ولم يكن ينع ذلك دائماً ولكن من حيثن إلى حين تلقانا في نثره هذه الرقع التي تدل على التكلف الشديد.

ومقامته الخامسة في وصف حريق دمشق الذي وصفه معاره الصفدى. ومرت بنا قطعة من وصفه، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم "صفو الرحيق في وصف الحريق" ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى في الموضوع نفسه قوية، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيرا من حتى عنوان مقامته وهو "رشف الرحيق في وصف الحريق". وله رسالة بديعة في وصف وباء

---

(١) نداه: كرمه.

(٢) العرف: المعروف.

الطـاعون الـذي فتـك بسـيا وامتـد مـن الصـين والهنـد إلـى الشـام ومصـر لسـنة ٧٤٩ ويسـميها ابـن حجـر مقامـة، وتسـميتها- كمـا جـاء فـي الـديوان- باسـم رسـالة أولـى لغيـاب الروايـة والحـوار فيهـا، ومثلهـا رسـالته التـي كتـب فيهـا مفـاخرة بـين السـيف والقلـم، وهـى رسالة طريفة.

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب المساجد كل يوم جمعة وفى العيدين:عيد الفطر وعيد الأضحى، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تموج بخطب الوعظ وإن لم تعن كتب الأدباء بتسجيلها، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء، غير أنها بقيت منها شظايا، وأول ما يلقانا من ذلك في الشام خطب الخلفاء منذ معاوية، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر. وكان القُصَّاص منذ معاوية يعظون الناس، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين: مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعين للقصاص مرتبات [(١)] خاصة. ويشتهر في زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حيوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقى وكانت له رسائل مليئة بالوعظ. وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثاني وفى مقدمتهم الأوزاعى صاحب المذهب المشهور. وبالمثل ظل الوعظ حيا مزدهرا في القرنين الثالث والرابع، ويلقانا في حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباته، وسنقف قليلا عند خطبه، ولا نلبث أن نلتقى بأبى العلاء، والعظات وتمجيد الله والزهد في متاع الدنيا يكثر في أشعاره وكتبه، وما نفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجده يقول: "أن من هذه الأوراق ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد.. وبعضها تذكير للناسين، وتنبيه للرقد الغافلين، وتحذير من الدنيا". وله بجانب اللزوميات ديوان ثان في العظة والزهد والاستغفار سماه: "استغفر واستغفرى" سقط من يد الزم، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت. وكان له في النثر دعاء يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة، وكتاب يعرف بالسجعات العشر في الوعظ، وكتاب يعرف بسيف الخطب، وفيه خطب الجمع وليدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة ثل الهمزة والباء والتاء والدال واللام واليم والنون،

---

(١) انظر في ذلك كتابنا الفن ومذهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف ت الطبعة التاسعة) ص٧٥.

لان الكلام المقول في الجماعات ينبغي أنيكون لينا سهلا. وله كتاب تاج الحرة، وهو في عظات النساء خاصة. وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن، وبقى من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات، وسنخصه بحديثعما قليل.

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية في نفوس الناس، حتى يجاهدوا في سبيل الله، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية. واشتهركثيرون حينئذ بروعة وعظهم، منهم بنو العديم في حلب لعهد نور الدين، ومنهم ابن نجا خطيبدمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩،ومنهم محى الدين محمد بن الزكى قاضى دمشق وخطيبها، وهو الذي خطب أول جمعة صُلِّيت بالقدس بعد فتحه، وسنلم بخطبته.

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المذهب الدمشقى الذي لقيه العماد الأصبهاني-كما يقول بخريدته- بدمشق سنة ٥٧١ وسنلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعدُّ سبط أبن الجوزى يوسفبن قزوغلى أكبرواعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجرى حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة. وكان ق نشأ في حجر جده ابن الجوزى واستمع في مواعظه الرائعة التي نوهنا بها في حديثنا عن العراق، وطارت شهرته في الوعظ كما طارت شهرة جده، وكان يحضر مجلسه القضاة والإشراف والأعيان "ونالته السعادة والوجاهة عند الملوكن لا سيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمنزلة العظيمى، وكان له لسان حلو في الوعظ والتذكار ولكلامه موقع في القلوب (١) " ويصف أو شامة مجلس وعظه في كتابه "ذيل الروضتين" فيقول: "كانت مجالس وعظه ن محاسن الدنيا ولذاتها. وكان يزدحم في مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق، وجامع الجيل، حضرتُ مجالسه صغر وكبرى في الموضعين مرارا، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انقض إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر. وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبْسَطُ السجادات والحُصْر والبسط ف كل المواضع القريبة

(١) النجوم الزهرة ٣٩/٧.

من المنبر ما بين وبين القبة في يوم الجمعة، ويبيت الناس ليلة كل سبت حَلقا، يقرءون القرآن بالشموع، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن"[١].

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسى، وله حوار طريف مع إبليس سماه "القول النفيس في تفليس إبليس" وهى رسالة صغيرة، أراد بها أن يُعْلم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى ما يتخبطون فيه من الغى. وأطراف من هذه الرسالة رسالة له سماها "كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار" وسنتحدث عنها بين الرسائل الأدبية. ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموى فترة، ويقول ابن حجة: "لما فوضت غليه خطابة الجامع الأموى لم يبقى أحد من أعيان دمشق إلا حضر في تلك الجمعة لأجل سماع خطبته، وكانت براعتها (فاتحتها): الحمد لله الذي أيد محمدا بهجرته، ونقله من أحبَّ البقاع إليه لما اختاره من تأييد ورفعته [٢] ". ولا ريب أن الخطابة الدينية أطرد لها أزدهارها ايام العثمانيين، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويراً واضحاً. ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة.

(أ) خطب ابن[٣] نباته الفارقى

ابن نباته الفارقى هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد، وفيه يقول ابن خلكان: "صاحب الخطب المشهورة. وقع الإجماع على انه ما عثمل مثلها وفيها دلالة على غزارة عمله وجودة قريحته، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمدانى وكان كثير الغزوات، ولهذا أكثر ابن نباته من خطب الجهاد ليحض الناس عليه، ويحثهم على نصرة سيف الولة. ولد سنة ٣٣٦٥ وتوفى سنة ٣٧٤. وخلفه في الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفية أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠. وطُبعت خطبهم جميعا مراراً، وطبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمَع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذى الحجة ومن قوله في الخطبة الثالثة لشهر صفر، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم:

---

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص٤٩.

(٢) خزنة الأدب ص ٢٠.

(٣) انظر في ابن نباته الفارقى ابن خلكان ١٥٦/٣ وعبر الذهبي ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣.

"أيها الناس ! تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل، ولا تطمعوا في هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم يا عباد الله الرحيل الرحيل، هو الموت الذي ما فيه فوتٌ ولا تعجيل، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بديل، كم ألحق عليلا بصحيح وصحيحاً بعليل، وكم أخذ قريباً من قريب وخليلا من خليل، فكيف تطمعون في الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل، فإلى متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمل إلا القليل، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى في كماله عن الشبيه والمثيل".

ولغة ابن نباته في خطابته عذبة سائغة، وقد بناها على السجع شأنه في ذلك شأن الخطباء والكتاب في العصر، فقد عم السجع حتى في الكتابات التاريخية كما مر بنا عند العماد الاصباني، وسجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه، لسهولته وخفته وبراعته في صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد، ويقول في الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان:

"عباد الله أن شهركم هذا الشهر البركات والسرور، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور، والتجارة فيه لن تبور.. عباد الله! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور، وإنهاكم أن تُحْبطوا صيامكم بالغَيْبَة والنميمة وقول الزور.. يا مفطرا بالحرام لأى شيء يكون ألافطار والسحور، يا غافلا عن طاعة الله ما هذه الغفلة والفتور، يا هائما في تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور... يا مائلا إلى زهرة الدنيا، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، يا عادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم النُّشور".

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتية يعظ الناس في أيام الجمع، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وافئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه خطب على بن أبى طالب في نهج البلاغة، وبدون ريب كان يثير في خطابته ببيانه الرائع.

(ب) الفصول[١] والغايات

هذا كتاب جمعيه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلىّ الأعلى، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه، وقد اثار ضجة حوله منذ ظهوره، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة [٢] للقرآن الكريم، ونجد تلميذه ابن سنان الخفاجى الذي مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة [٣]، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب: "الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات" وهو لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتحميده الثناء عليه، وهو نفسه يقول في كتابه: "علم ربنا ما علم، أنى ألفت الكلم، آمل رضاه المسلم، وأتقى سخطه المؤم، فهَبْ لى ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب". والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلى حتى ليقول [٤]:

"لو نقلتُ مياه اللُّجَج على منكبى في قُداف [٥]، وافرغته على مناكب الجبال، وجررت كُثْبان الأرض وصَرائمها [٦] في جَرٍّ أو مِشْآةٍ [٧]، فألقيتها في الخُضَر [٨] الدائمات، حَفْدًا [٩] لله كنتُ أحدَ العجزة المقصرين، ولو أُذن لى وأبِّدْتُ فاتبنيتُ

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زناتى) وقد نشر القسم الأول منها وينتهى في الغايات إلى حرف الخاء.

(٢) راجع سفر نامة لناصر خسرو (الترجمة العربية طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص١١ ودمية القصر ١/١٣٠ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١.

(٣) تعريف القدماء بابى العلاء ص ٤٢٦.

(٤) الفصول والغايات ١/٥٩.

(٥) قذاف: جرة

(٦) صرائم: جمع صريمة وهى القطعة من الرمل.

(٧) جر، مشآة: زبيل.

(٨) الخضر: اللجج

(٩) حفدا: خدمة

مَراهص (١) من الثَّرى الأسفل إلى الثرايا، ومن الوتد، المتخذ من عواد إلى وتد السعود (٢)، أؤدِّ ما يوجبه جلال الله، فكيف وأن أقصُر الصلاة، وأدانى بني الركعات".

وهو يقول: مهما تنسك ومهما أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه في جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال، وحتى لو جر كثبان الأرض وراء كثيف زنابيل وألقاها في لجج البحار تقربا إلى ربه، وحتى لو ابتنى من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثريا أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعضن حتى يصل إلى وتد السعود، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ما توجه تجلة الله وعظمته. وإنه ليصيح مبتهلا إلى ربه في جزع لا يدانيه جزع: "أن كان الدمع يطفئ غضبك فهَبْ لى عينين كأنهما غمامتا شَتِيٍّ (٣) تبلان (٤) الصباح والمساء (٥)" إنه سيظل ما عاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه. ولهذه الصيحة أخوات كثيرة في الكتاب، فأبو العلاء فيه دائما يناجى ربه ضارعا بل وجلا خائفاً.

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلا بعدد حروف المعجم، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر، وكل فقرة تنتهى بالحروف الذي اختاره للفصل ويسمى غاية، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائما. وليس هذا كل ما صعبه على نفسه في الكتابن فقد التزم في كثيرن الفقر أن تشترك سجعاتها في حرفين أو أكثر على طريقة ما نعرف في لزومياته. والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيرا من الألفاظ الغريبة، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة، حتى ليمكن أننقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته. وعلى عادته في أشعاره كثيرا ما يضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس. وكما أرينا في اللزوميات يكثر في الفصول والغايات من ذكر المصطلحات

---

(١) مراهص: طبقات

(٢) وتد السعود: سعد الأخبية: نجوم معروفة.

(٣) شتى ك من الشتاء ويرد سحابا دائم المطر.

(٤) تبلان: تهطلان، من الوبل وهو المطر الغزير.

(٥) الفصول والغايات ٢٥٩/١.

العلمية يجلبها من جميع العلوم، وكأنما يراها وشيا خليقا أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه، من ذلك قوله مستظهرًا لبعض مصطلحات علم الصرف(١).

"لا تجعلني ربِّ معتلا كوار يقوم، ولا مبدلا كواو موقن من اليا، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستغناء، كواو جدول وعجوز، فأما واوعمروا فأعوذ بك ربَّ الأشياء، إنما هي صورة لا جرس لها ولا غناء، مشبهها لا يحسب من النسمات".

وعلماء الصرف يقولون أن واويقوم أصلها يقوم باستتقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ما قبلها واعتلت، وأن كلمة "موقن" أصلها مُيْقن، فقلبت الياء واوًا لسكونها وانضمام ما قبلها، وأن الواو في جدول وعجوز زائدة لأنهما مشتقات من الجدل والعجز. ومعروف أن واو عمرو تكتب ولا تنطق تمييزًا للكلمة من كلمة عمر. وكل ذلك يحشده أبو العلاء في بعض وعظه بل إنه ليحشد كثير من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها. وحسبنا ما قدمناه لنأخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات، وفي كتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" كلمة عنه أكثر بسطا وتفصيلاً وتحليلاً.

(جـ) خطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محيى (٢) الدين محمد بن الزكى على من سلالة عثمان بن عفان رضى الله عنه، كانوا قضاة في دمشق، وكانت ولادته سنة ٥٥٠، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية، فلما صارت له حلب ولاه قضاءها، حتى إذا فُتحت القدس، وكان محيى الدين حاضرا فتحها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها في أول يوم جمعة، وأعدَّ من كانوا في حضرته خطبها بليغة يخطبون بها في هذا اليوم واختار صلاح محيي الدين، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات في أول سورة الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر، ثم شرع في الخطبة وقال (٣) فيها.

"الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكفار بمركره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وعل العاقبة للمتقين

---

(١) الفصول والغايات ١/١٤٢.

(٢) انظر ترجمة محي الدين في طبقات السبكى ٦/١٥٧ وابن خلكان ٤/٢٢٩ وعبر الذهبى ٤/٢٠١ والبداية والنهاية ١٣/٣٢ والنجوم الزاهرة ٤/٢٠١ والبداية والنهاية ١٣/٣٢ والنجوم الزاهرة ٦/١٨١ والشذرات ٤/٣٣٧.

(٣) انظر الخطبة كاملة في ابن خلكان والروضتين ٢/١١٠.

بفضله، وأفاء على عباده ن ظله، وأظهر دينه على الدين كله.. أمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقس من أدناس الشرك وأوضاره.

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة (١)، من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام، بعد ابتذالها في أيى المشركين قريبا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه أسمه، وإماطة (٢) الشرك عن طرقه بعد أن أمتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه.. ولولا أنكم ممن أختاره الله من عباده، اصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم في شرفها مُبار. وهذا هو الفتح الى فُتحت له أبواب السماء، وتبلجت (٣) بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقرَّ به عينا الأنبياء المرسلون.. فاحفاظوا- رحمكم الله- هذه الموهبة فيكم، وأحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي مَنْ تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعُرْوتها نجا وعُصم، واحذروا من أتباع الهوى ومواقعة الرَّدَى، ورجوع القهقرى... الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، وأذلالله من كفر".

والخطبة طويلة، وقد أكتفيا منها بهذه الشظايا الرائعة التي تصور فرحة السلمين بهذا الفتح المبين والنصر العظيم، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بَدْر وفتوح الشام ومصر والقادسية وهجمات خالد والصحابة الأولين، وما النصر إلا من عند الله.

---

(١) الضالة هنا: كل ما ضل وضاع، في المثل: الحكمة ضالة المؤمن.

(٢) إماطة: تنحية وإبعاد.

(٣) تبلجت: أشرقت.

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن [١] غانم عبد السلام بن أحمد المقدسي الواعظ المشهور لزمنه المتوفى سنة ٦٧٨،والكتاب في ٣٠ صفحة، ذكر في مقدمته ما يفصح عن موضوعه قائلاً: "قد وضعت كتابي هذا مترجماعما استفدته من الحيوان برمزه، والجماد بغمزه، وما خطابتني به الأزاهير بلسان حالها، والشحارير عن ما قرأرت حالها. وسميته كشف الاسراع نحكم الطيور والأزهار، وجعلته موزعظة لأهل الاعتبار، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار". ويقول إنه خرج يوما ليتأمل في الطبيعة وأسرارها، وانتهى إلى روضة رق نسيمها وغنى عندليبها، وكان وحيدا وأخذ كل ما حوله يخاطبه بلسان الحال ودالا على القدرة الإلهية وحكمة الله في خلقه وعظيم صنعته، وسجل من ذلك عظات بليغة على ألسنة الأزهار ثم ألسنة الطيرة ثم ألسنة الطير ثم ألسنة الحيوان. وبدأ بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه، ثم تركه إلى الاشحار واحدا عشر نوعا من الاشجار واحد عشر نوعا من الأزهار استهلها بالورد قائلاً على لسانه "أنا الضيف، فاغتنموا وقتى فالوقت سيف، أعطيت نفسه العاشق وكُسيت ملاحه المعشوق، وأنا الزائر وأنا المزور، ومن طمع في بقائي فإن ذلك زور، ثم من علامة الدهر المدكور، والعيش المحرور، أنى حيثما نبتُّ رأيت الأشواك تزاحمنى وتجاورنى، فأنا بين الأدغال مطورح، وبنال شوكى مجروح. وهذا دمى على عندمى يلوح، وهذا حالى وأنا ألطف الأورد، وأشرف الورَّاد، فمن صبر على نكد الدنيا بلغ المراد".

وختم ابن غانم الكلمة بالعظة التي يريدها، وجعل الورد ضيفًا على الطبيعة، لأن مدة بقائه فيها قصيرة، واستغل ما ينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذاقت الناس فيها من حلاوة العيش لابد أن تجمع إليهم شيئاً من مراراته فليست الدنيا ورداً خالصاً ولا حاية الإنسان فيها دائماً مشرقة زاهية بل لابد منظلمة تغشاها، بل هي مزيج من خيروشر وأمل ويأس وسرور وحزن، وجرى بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى

(١) انظر في ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٩/١٣ ومرآة الجنان لليافعى ١٩٠/٤ والشذرات لابن العماد ٣٦٢/٥.

يبلـغ مأمولـه. ويقـول علـى لسـان شـجرة البـان الـذي طالمـا ذكـر المحبـون فـي لينـة وتمايـل أغصانه محبوباتهم.

"أنظـر إلـى الـورد وقـد ورد، وإلـى البـرد وقـد شـرد، وإلـى الزهـر وقـد أنقـد، وإلـى الحَـبِّ وقـد انعقـد، وإلـى الغصـن اليـابس قـد اكتسـى بعـدما انجـرد، وإلـى اخـتلاف الطـاعم ومشـربُها قـد أتحـد،÷ واعلـم أن خالقهـا أحـد، وصـانعها صَـمَد، وموجـدها بالقـدرة قـد انفـرد، لا يشـاركه في ملكه أحد، ولا يفتقر هو إلى أحد (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

وهـى عظـة بليغـة علـى لسـان البـان، فـالربيع أقبـل، وأقبـل الـورد معـه، وشـرد الشـتاء والبـرد: واضـاء الزهـر بألوانـه واتقـد، وحـب الثمـار قـد انعقـد، واكتسـت الغصـون بعـد العرى وسـقوط الأوراق عنهـا، ودبـت فيهـا نضـرة الحيـاة، ومـا أعظـم قـدرة الله فالنباتـات والأشـجار تسقى بمـا واحـد وتختلـف ثمارهـا وطعومهـا بـين حلـو وحـامض، وكـل ذلـك شـاهد علـى قـدرة الله التـي لا يشـركه فيهـا أحـد، إنـه واحـد صـمد لـيس كمثلـه شـيء وهـو علـى كـل شـيء قدير.

وينتقـل ابـن غـانم مـن الحكايـة علـى لسـان الأزهـار إلـى الحكايـة علـى لسـان الأطيـار، ويسـتهل كلامهـا بكـلام الهـزار وهـو طـائر حسـن الصـوت متعـدد الألحـان وعلـى لسـانه يقول:

"أنـا العاشـق الولهـان، أنـا الهـائم اللهفـان، إا رأيـت فصـل الربيـع قـد حـان، تجـدنى فـي الريـاض فرحـان، وفـى الغيـاض (١) أردد الألحـان.. وأرقـص علـى الأغصـان كـأن الزهـر والنهـر لـى عيـدان (٢) ن وأبـوح ترحـا لا فرحـا، لا أجـد روضـة إلا نُحْـتُ علـى اضـمحلالها، ولا خضـرة إلا تبلبلـت علـى زوالهـا، لأنـى مـا رأيـت قـط صـفوة إلا تكـدرت، ولا عيشـة حلـوة إلا تمررت، فقرأت في تمثال العرفان، كلٌّ من عليها فان".

والهـزار فـي أول العظـة فـرح بمقـدم الربيـع، وسـرعان مـا يفكـر فـي إنتهائـه، فينـدب وينـوح، إذ لا يجـد روضـة إلا وتضـمحل بعـد أزدهارهـا. ويتسـع تفكيـره حتـى يشـمل الحيـاة، فـإذا كـل مـا فيهـا مـن صـفاء لا يلبـث أن تغشـاه كـدرة قاتمـة، وكـل مـا فيهـا مـن عـيش حلـو

---

(١) الغياض: جمع غيضة وهى الشجرة الملتف.

(٢) عيدان هنا: جمع عود، وهو الآلة الموسيقية المعروفة.

لا يلبث أن ينقلب عيشا مرا، بل أن كل ما فيها هالك فإن. وسَعِد من كُتبت له السعادة، وشقى من كتب له الشقاء. وينتقل إلى الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان النمل إذ تقول:

"إذا رماك الدهر بمرمى فقمم له، وإذا رأيت من تهيأ للسير فَسِرْ قبله، ولا تكن في تدبير عيشك أبله، تعلمْ منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد.. كُلِّفت جمع المئونة بتيسير المعونة، وأعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ، ما لم يدركه ذو العلم الراسخ، ثم أعْطيت بالتقدير، حسن التدبير، فأدبر ما أدخره من الحب لقوتى، في بيوتى".

والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير في الطريق السديد، وأعيًا لحكمة الله فيخلقه، متعظا بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وامثال وأضواء تنير له دنياه، وتعده إعدادا حسنا لأخراه. ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد، وهو حقا مسجوع، ولكن ليس فيه ألفاظ آبدة غريبة، وتتخلله أبيات شعرية سائغة، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره. وبجانب الأبيات المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعاً.

٥

أعمال أدبية: رسائل وغير رسائل

خَلَّفت الشام في هذا العصر أعمالا أدبية كثيرة، ويلقانا في مفتتحه كشاج، وله كتاب المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وما قيل فيه من الأشعار عرضا طريفا، وله بجانبه كتاب في البيزة أو بعبارة أخرى في جوارح الشيد، وكتاب في أدب النديم. ولأبى العلاء المعرى أعمال أدبية نثرية كثيرة، ولعل أهمها رسالة الغفرا، وسلم بها عما قليل، وفى خريدة القصر قسم الشام رسالة أدبية بديعة هي رسالة النسر والبلبل، وسنفرد لها كلمة موجزة،وفى الخريدة أيضا رسالة (١) طريقة ليعمر بنى عيسى المتوفى شابا سنة ثمان أو تسع وستين وخمسمائة، وموضوعها معاشرة الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غُصَّة في دنيا لا يدوم نعيمها ولا تندمل كلومها، وعنده أن الفرصة هي الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص. ويفيض في وصف الصيد وماركبوا فيه من خيل وما حملوا فيه معهم من فهود وكلام وبُزاة وشواهين، ويطيل في بيان صيد له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة، وهى رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق في فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفى تصاويره وتلاوينه.

وربما كان أهم من عنى في القرن السادس الهجرى بكتابه أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذي مرت ترجمته بين الشعراء، وله كتاب العصا جمع فيه ما نظم من شعر، وهو منشور، وله في سبعة كتب: في الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة ولا آداب والبلاغة والحكمة، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلاك في الأدب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير ن الظلم والإحسان والحض على فعل الخير. وعادة يورد في كل كتاب ما يتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وما روى عن العرب والعجم من أقوال. ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أتى على حصن شَيْزر موطنه وأحاله أنكاثا وانقاضا، ويقول في مقدمته: "دعاني إلى جمع هذا الكتاب ما نال

---

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام) ١/٣٥٤-٣٨٩.

بلادى وأوطاني من الخراب، فإن الزمان جر عليها ذيله، وصرف إلى تعفيتها (١) وحوله وحيله (٢)، فأصبحتْ (كأن لم تَغْنَ بالأمس) وحشة العَرصات بعد الانس، قد دَثَر عمرانها، وهلك سكان، فعادت مغانيها (٣) رسوما، والمسرات بها حسرات وهمومها" وهو كتاب ضم في نحو ٥٠٠ صفحة، اختار فيه أطراف ماله ولسابقيه من أشعار بديعة، وقد جعله في ستة عشر فصلاً: في المنازل والديار والمغاني والأطلال والربع والدمن (٤) والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان. وأطراف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخصه بكلمة. ونمضي إلى زمن المماليك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا، وهو أشبه بمقالات أدبية في الطبيعة والطير والحيوان والاخلاق وسنلمّ به عما قليل.

ونلتقى في زمن المماليك بابن حجة الحموى وكتابه "ثمرات الأوراق" وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات، فيه نثرو ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمق والأطباء، مع بعض الأحداث في زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات وبأخرة من عصر المماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء" وسنفرد له كلمة.

ونتقدم إلى أيام العثمانيين، ونلتقى ببها الدين العامل الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة، وله المحلاة، وهو كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر، وأهم منهمكتابه الكشكول، وهو في مجلدين، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية، ومن بحوث التاريخ والفلسفى والتصوف، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحماسة والحكمة، وحري بناء أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية.

---

(١) تعفيتها: دثورها وطمسها.

(٢) الجيل: الحول والقوة.

(٣) مغانيها: منازلها.

(٤) الدمن: آثار الديار.

(أ) رسالة[١] الغفران

رسالة طويلة في نحو مائتى صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعلى بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح، وهى تنقسم قسمين: قسما يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصول له نزهة في الجنة يلقى بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم: بِمَ غُفر لهم، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن الارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظاراً لمصيره وقد ظل في المحشر واقفا حتى تعب من شدة الحر والظمأ، وكان معك صك التوبة ففكر في دخول الجنة عن طريق خداعة لسدنتها ونظم القصائد الطوال في مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا، وتركه في سادن آخر فنبهه إلى أن يتشبع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه. ولقي حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام على بن أبى طالب، ورأى أبا على الفارسى يحاوره نفر من شعراء البادية في تأويله لبعض كلامه، وطلب على بن أبى طالب منه شاهدًا على توبته فاستشهد بقاض من حلب، وسقاه على من الحوض، وقال له: لا سبيل إلى دخول الجنة قبل الحساب، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركات إبراهيم بن الرسول ﷺ: ويسأله رضوان هل معك من جواظ؟ ويجذبه إبراهيم معه، فيدخلها ويلتقى ثانية بالشعراء ويحاورهم. ويقيم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من في الجنة من شعراء وعلماء وأدباء، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة، ويطلع فيرى طائفة من الجن، ممن آمنوا بالرسول ﷺ، ويسأل شيخهم عن أشعارهم التي جمع منها المرزبانى قطعة صالحة فيقول الشيخ: إنما ذلك هذيان لا معتمد عليه، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقى بالحطيئة والخنساء وهى تنظر إلى أخيها صخر في الجحيم، وينظر مثل الخنساء، فيجد أبليس وأمرأ القيس وعنترة وأثنى عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبى ويحاورهم جميعا. ويعود فيلتقى بآدم عليه السلام وببعض الحيات التي ظلمت في الدنيا، وكوفئت في الآخرة بدخول الفردوس ونزولها في روضة الحيات. ويمر بجنة الرُّجَّاز، ويحاورهم في

(١) انظر في رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) و(طبعة د. بنت الشاطئ) وهى طبعة محققة (نشر دار المعارف).

أرجـازهم حـوارا طريفـا. وتنتهـى رحلـة ابـن القـارح علـى الصـراط ومـا شـاهد مـن عـذاب فـي الجحيم ومن نعيم لا يماثله نعيم في الجنة، ويقضى ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم.

وهـذا هـو القسـم الأول فـي الرسـالة، وقـد كـان لـه تـأثير عميـق فـي الآداب العالميـة، إذ كتـب دانتـى الشـاعر الإيطـالى المتـوفى سـنة ١٣٢١م علـى غـراره الكوميـديا الإلهيـة، وشُـغل بالبحث في ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولا يزالون مشغولين.

والقسـم الثـاني مـن الرسـالة خـاص بسـؤال ابـن القـارح لأبـى العـلاء عـن الزندقـة والزنادقـة، وقـد اسـتهلها ابـو العـلاء بالثنـاء علـى ابـن القـارح لوفاتـه فـي زمـن يعـز فيـه الوفـاء: وتحـدث عـن حرفـة الأدب وهمومهـا، ودفـع عـن المتنبـى مـا يقـال مـن زندقتـه أو إلحـاده إذ كـان مثالهـا كمـا تشـهد بـذلك أشـعاره، وشـك فـي عقيـدة دعبـل. وذكـر بعـض الشـعراء الزنادقـة وفـى مقدمتهم بشـار وصـالح بـن عبـد القـدوس والوليـد بـن يزيـد، وتعـرض لكثيـر ن النحـل المارقـة فـي زمنـه، وفـى مقـدمتها القراطمـة وغـلاة الشـيعة كعبـد الله بـن سـبأ وعبـد الله بـن ميمـون القـداح رأس العقيـدة الإسـماعيلية والقـائلين بالتناسـخ كـالهنود وبـالحلول مـن الصـوفية كـالحلاج، وأَصْـلَى ابـنَ الراوِنْـدىّ الزنـديق (١) هـو وكتبـه: التـاج والـدامع والقضـيب والفريـد والمرجـان التـي طعـن فيهـا علـى الـدين الحنيـف نـارًا حاميـة مـن الـذم والتقريـع، ومـن قولـه فـي التـاج وهـو أهـم كتـاب ابـن الراونـدى الكـافرة: لايصـلح أن يكـون نعـلا، وأف وتـف، وجـورب وخـف وهمـا وأديـان بجهـنم. ويعـود إلـى حـديث ابـن القـارح، ويعـرض لتوبتـه وتمثيلـه جالسـا للـوعظ فـي مسـجد بحلـب، ويلـم بـأول سـماعه عنـه وبشـيوخه وببعض علماء حلب وبتلبيات العرب في الجاهلية وببعض مسائل فرعية.

والرسـالة نفيسـة إلىأبعـد حـد لالأن أبـا العـلاء صـوَّر فهيـا المحشـر والجحـيم والنعـيم فحسـب، بـل أيضـا لأنـه سـاق فـي حـواره مـع الشـعراء نقـدا لغويـاً وعروضـيا ونحويـا، مـع تعرضــه لقضــية الإنتحــال علــى القــدماء، ومــع جــودة استحســانه لمــا ســاقه مــن أبيــات الشـعراء ومـا ذكـر مـن قصـائدهم. وقـد عـرض فـي القسـم الثـاني للنحـل الكثيـر فـي زمنـه ومـا فيهـا مـن خـروج علـى الـدين وإلحـاد ومرمـوق. وقـد أنحـى بـذم عنيـف علـى كـل المـارقين

(١) راجع في ابن الراوندى والحادة والر عليه كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام، لعبد الرحمن بدوى.

الملحدين، ومع ذلك يقال إنه حمل الرسالة سخرية من الدين الحنيف، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة.

ولم نعرض لأسلوبه فيها، وهو نفس اسلوب العام الذي ألفناه، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة في الغرابة، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربي، علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمنتهم وعصورهم لم يحظَ به، وهو لا يكتفى بالأغراب في ألفاظ سجعه، بل يضيف إليها كما قلنا في غير ذلك الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الجناس. وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠-٤٢٩هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لعهده في العقد الثالث من القرن الرابع.

(ب) رسالة[١] النَّسر والبلبل

هى رسالة بديعة للمهذب أبى طالب محمد بن حسان الدمشقى ترجم له العماد الأصبهانى في خريدته. وقال إنه زاره في مدرسته العمادية التيان يدرس بها لطلابه في ربيع الأول سنة ٥٧١ واشند بعض أشعارهن ثم قال: ونقلت له من رسالة وسمها "بالنَّسْر والبلبل" فاختصرتها وأولها.." ثم ذكر- فيما يبدو فاتحتها، وهى تصور نسرا شاهدا روضا فاتنا خلب لبه، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملاه غبطة وفتنة، وفسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا من أنى مالك الطيور ليس لى شيء من سحره وجماله؟ وأجابه أن الصانع الحكيم لا يهب الأصوات حسب الأجسام. والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النمط:

طار طائر عن بعض الشجر، وقد هب نسيم السحر، وانفلق عمود الفلق [٢] وانخرق قميص الغَسَق [٣] مشهور بالقَسْر [٤]، موسوم بالنسر، والليل ق شابت ذُؤابته

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام) ٣٤٠/١ وانظر معها ترجمة صاحبها ممد بن حسان وانظر، في كتاب المحمدون من الشعراء والوافي بالوفيات ٣٣٠/٢.

(٢) الفلق: الصبح.

(٣) الغسق: الليل.

(٤) القسر: القهر.

(١)، وأبيضت فمته.. كأنما أجنحته رُكِّبت من العواطف، واستُلبت من البروق الخواطف.. كأنه سهم رُشِق(٢) عن قوس القضاء، أو نجم اشرق في أفق السماء.. يقبض أجنحته ويبسط، ويصعد إلى السماء ويهبط يجرح بأسنة قوادمه (٣) وأعطاف القَبول (٤) وأطراف الصبا، وَيُقدُّ الشال بخوالفَ (٥) كأنهما غروب (٦) الظبا، ويفتق بخوافيه (٧) جُيوبَ الجنوب (٨)، ويخرق بصدره صدر الريح في الهبوب.. حتى اشرف... على روض أريض (٩). وظل عريض، وأنهارٍ متدفقة، وأشجار مونقة، وطظل منثور، ووَرْد ومنثور (١٠)، ومكان بهيج، وزهر أرج.. فمن وردٍ فضيِّ الأوراق، ذهبى الأحداق، كافورى الصِّبغة، مسْكى الصِّيغة، مائتى الجسم، هوائى الرسم، حاكت (١١) الصبا إهابه، وخاطت الشمال أثوابهن وفتحت الجَنوب أكمامه، وحسرت (١٢) الدبور عن وجه جماله لثامه، فظهر في افق الشجر، كأنه شهب السَّحَر، أو خدود الحُور في القصور، ظهرت في غلائل من الكافور، ومن غصون تجتمع وتفترق، وتترنح وتعتنق، والنسائم تلُّ عَقْد أزرار الزَّهَر... والشمس تُسفر وتنتقب، وحاجة والغزالة (١٣) يبدو ويحتجب.. فوقف [النسر] في الهواء حين رآها وقال: هذه غاية النفس ومناها.. أين المذهب، وقد حصل المطلب، وأين الرواح وقد اسفر الصباح.. وبينا هو صاف الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها، إد سمع صوتا من بلبل سحرى على وَكْر شجرىّ، يناغى النسائم بنغمة مزماره، ورنة أوتاره.. وألحان أعذب من

---

(١) الذؤابة: شعر مقدم الرأس، والاستعارة واضحة.

(٢) رثق: رمى

(٣) القوادم: الريش الطويل في مقدم الجناح.

(٤) القبول: ريح الصبا الشرقية.

(٥) خوالف: جمع خالف هو الريش في مؤخر النسر.

(٦) غروب جمع غرب وهو طرف الحد- الظبا: جع ظلبة وهو الحد للرمح ونحوه.

(٧) الخوافى: الريش القصير في الجناح.

(٨) الجنوب: ريح جنوبية.

(٩) أريض: كثير النباتات حسن المنظر.

(١٠) المنثور: زهر له رائحة ذكية.

(١١) حاكت: نسجت.

(١٢) حسرت: كشفت والدبور ريح تهب من الغرب.

(١٣) الغزلة: الشمس

نقرات المزاهر، ينثر درا من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَف افتتانه بين أفنانه (١)، ويرجع قراءة مكتوب غرامة، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه.. كأنها ما قيل عن مزامير آل داود وتسابيحهم في الركوع والسجود.. أو أصوات رهبان الصوامع، أو تلاوة من تتجافى (٢) جُنوبهم عن المضاجع.. ثم هوى إلى القرار، لينظر من النافخ في المزمار، فرأى البلبل يرجع سجع ألحانه في ربع أحزانه".

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة، واكتفى بمطالعها أو فواتحها، فإننا زدناها اختصارا، وأكبر الظن، أنه قد أتضح جمال الاسلوب في هذه الرسالة البديعية، فسجعها يطير عن ألافواه بخفته لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره. ويَفْتن النسّر صوتُ البلبل وجمال تلاحيته، فيتجه إليه مسلما عليه، ويظهر العجب لأنه صغير حقير في منظره، وله هذا اللحن المطرب، والصوت المعجب، وبصراحة بما في نفسه، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته، فيقول له: "أما علمت أن الأرواح لطائف وهى أشرف من الأجسام، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة ألافهام، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان، والإنسان عظيم المعتبر منه الأصغران: القلب واللسان، ما يكون الدر بقدر الصدف، وشتان ما بينهما في القيمة والشرف، ولا الآدمى كالفيل، وبينهما بَوْنٌ في التفصيل.. وأما النغمة التي قرع سمعَك سوط لذتها.. فإننى رصعت شّذْرها (٣) في عقد ألحانى على نغم بعض الأغاني".

ويذكر البلبل للنسر أنه كون الحانه من احتفال يعقد في الروضة كل ليلة لملك ياتيها مع ندمائه، إذا ولى النهار وصَبَغ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشْعَلُ له الشموع وتصطفّ القيان وصفوف الحور والولدان وترجع الأنغام والألحان، وينقضى ليلهم في لهو وسماع وطرب، ومنهم أخذ ألحانه وأنغامه. وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحذر وحذوه في الاستماع إلى رنات الغناء في هذا الحفل العجيب. ويعو النسر إلى المبيت في الروض غير أنه ينام،ويضيع منه مراده، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا: أن من استلذ المقام، عدم المرام، ووُجِّه إليه الملام. وأكثر البلبل على النسر العتاب،

---

(١) أفنانه: أغصانه

(٢) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوبهم عن المضاجع ليلا للعبادة والصلاة.

(٣) الشذر: قطع الذهب وصغار اللؤلؤ.

فودعه وطار، وقد عدم الأوطار. ويطيل المذهب في العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد، وبصدق الطلب يُدرك الأرب. ويقول العماد أن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظى ليس من شرط كتابه ذكره، وواضح أن وعظها دار حول الجد في طلب المنى دون مهلة أو ما يشبه المهلة فضلا عن الغفلة وما يشبه الغفلة.

(ج) كتاب الاعتبار(١)

مذكرات طريفة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا في الحروب الصليبية، وقد مرت ترجمته بين الشعراء، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى في شَيْزر حصن آبائه وما وقع له فيها من أحداث، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنقل- كما مر في ترجمته- بين دمشق والقاهرة والموصل.. ووصف ما شاهده واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحَملة الصليب، وشارك- كما مر بنا- في احداث مص قبيل نهاية الدولة الفاطمية، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء. ووصف وصفا حيا حربة تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين، كما وصف وصفاحيا معيشة حملة الصليب بديار الشام إذا كانت تتصل بينهم وبين المسلمين- حين تضع الحرب أوزارها- علاقات من حسن الجوار، مما جعله ينزل بينهم في بعض الأوقات. وقد وصفهم بأنهم "بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير" ويصورهم متأخرين حاضرياً عن المسلمين. ويذكر في صراحة أن المؤدة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم، ويقول إنه لا توجد عندهم غيرة على نسائهم، ويصورهم متخلفين في الطب تخلفا شديدا، ويقص هذه النادرة:

"من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (فى أعالى الشام) كتب إلى عمى أمير شَيْزر يطلب منه إنقاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه، فأرسل إليهم طبيبا نصرانياً يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما دوايت المرضى! قال: أحضروا عندى فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت

---

(١) نشر فيليب حتى هذا الكتاب في برستون سنة ١٩٣١ وراجع من كتابه عنه في كتابنا: الترجمة الشخصية والرحلة (طبع دار المعارف).

للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها.فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم: هذا ما يعرف شيء (فكيف) يدويهما؟ وقال للفارس: أيما أحب إليك؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة، فقال: أحضروا إلى فارسا قويا وفارسا قاطعا، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة (قطعة) خشب، وقال للفارس: أضرب رجله بالفأس ضرة واحدة، أقطعها، فضربه وأنا أره ضربة واحدة فما انقطعت وضربه ضربة ثانية، فسال مخ الساق، ومات من ساعته، وأبصر المرأة، فقال: هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشها، الحقوا شعرها، فحلوه. وعادت تأكل من مأكلهم: الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال، الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى، وشق رأسها صليبا، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكه بالملح، فقلت لهم: أبقى لكم إلى حاجة؟ قال فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه".

وثابت الطيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم. ويتحدث أسامة طويلا عن عاداتهم وما أخذوه من العادات الإسلامية الشرقية في المطعم والملبس، مما يؤكد أنهم كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها.

وليس في هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولا أى نسق تاليفى، بل الاخبار أو قل الذكريات ياخذ بعضها برقاب بعض، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة، أو قل إنها ذكريات مبعثرة، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لا تصنع فيه ولا تكلف، فلا سجع يداخله ولا محسن من محسنات البديع، بل يترك أسامة نفسه على سجيتها يصف ما شاهد وصفا ناضبا بالحياة في لغة سهلة، حتى لتقترب أحيانا من العامية. وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا، ففيها بعض الخطأ في الإعراب وفى نسق الأسلوب، غير أن ذلك لا يتصل في الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبى الفصيح، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إفرنجية واخرى فارسية أو تركية، و:انما يري أداء الواقع بكل ما يتصل به من لغة الناس لزمنه. وفى الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حربية وسياسية وأحوال الجتماعية وخاصة لحملة الصليب، سجّلها مشاهد لها رآها تحت بصره.

(د) نسيم[١] الصَّبا

مؤلف هذا الكتاب الذي يُعَدْ طرفه أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقي المعروف باسم ابن حبيب احد اجداده، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عين محتسبا بحلب، فنشأ بها بدر الدين، ورحل في طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن أبن نباته ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام في الاسكندرية مدة، ثم تركها إلى القدس والخليل ومكة. وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق في عهد الأمير سيف الدين منجك، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفى سنة ٧٧٩. وله تاريخ في سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك في دولة الأتراك وهو مسجوع. وله تذكرة النبيه في ايام المنصور (قلاوون) وبنية، وله في السيرة النبوية كتابان: النجم الثاقب في إشراف المناقب، والمقتفى في ذكر فضائل المصطفى.

وأهم أعمال ابن حبيب الادبية "نسيم الصبا" وهو ثلاثون فصلا أو مقالة بتعتبرنا الحديث، اتخذ موضوعها الطبيعة أحيانا، إذ له فيها ثمانية فصول في وصف السماء، والشمس والقمر، والمطر، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر، والأشجار والثمار والروض والأزهار، وأحيانا اتخذ موضوعها الحيوان والطير إذ له فيه أربعة فصول في الخيل والإبل والوحش، والطيور، ورمى البندق أو الصيد. وأحيانا اخرى أتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان. وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والرثاء، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للأعداء، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينهما من الفراق أو يضنيه من العشق، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه، يذكر فيه محاسنه ومساويه. وبعض الفصول- كما يتضح من موضوعها- مفاخرات أو مناظرات، على نحو ما يلقانا عن فصول السنة في الفصل الخامس، ونشعر دائماً بالقدرة على التعبير للسجوع والتوير الرابع كقوله في الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عُبابه:

---

(١) انظر في نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزهرة ١٨٩/١١ والشذرات ٢٦٧/٦ وتقاريظ الصفد لنسيم الصبا بين يى طبعته سنة ١٢٩٠ هـ.

"هزَّتْنى رياح الأمل البسيط، إلى أمتطاء ثَبج[١] البحر المحيط، فاتيت سفينة يطيب للسَّفْر مثواها، وركبتُ فيها (بِسْمِ الله مَجْراها ومُرْساها).. يالها سفينة، على الأموال أمينة، ذات دُسُر[٢] وألواح، تجرى مع الرياح، وتطير بغير جناح، وتعتاض عن الحادى[٣] بالملاح، تخوض وتلعب وتَرِد[٤] ولا تشرب، لها قِلاع كالقلاع[٥]، وشراع يحجب الشعاع، وسكينة وسكان[٦] ومكانة وإمكان، وجؤجؤ وفقار[٧]، وأضلاع محكمة بالقار[٨]... بعيدة ما بين السحر والنحر[٩]، من أحسن الجوارى[١٠] المنشآت في البحر، معقودٌ بنواصيها[١١] الخير كالخَيْل، لا تملُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل:

مالا رأى الناسُ من قصورٍعلى الما   ء سواها تَسيُر سَيْرَ القِداحِ[١٢]

كأنها وعل[١٣] ينطُ من شاهق، أو عِرْباض[١٤] قسابق يحثه سائق، أو عقرب شائلة[١٥]، أو عُقاب صائلة[١٦].. حاكمها[١٧] عادل في حكه، عارف بنقض أمرها وبرمه[١٨]، ويهتدى بالنجوم، ويبتدئ باسم الحى القيوم.. وبينما نحن من البحر في قاموسه[١٩]، كتب الجو حروف الغيم في طروسه، وثارت ريح عاصف، يتبعها رعد

---

(١) ثبج: وسط
(٢) دسر: حبال
(٣) الحادى: سائق الإبل بالحداء وهو الغناء للأبل
(٤) ترد: من ورود الماء وبلوغه
(٥) قلاع الأولى: شراع السفينة جمع قلع. وقلاع الثانية: جمع قلعة وهى الحصن.
(٦) سكينة: وقار. وسكان السفينة: دفتها.
(٧) الجؤجؤ: صدر السفينة. الفقار: جمع فقارة وهى الواحدة من عظام سلسلة الظهر.
(٨) الفار: القطران.
(٩) السحر: الرئة، النحر، أعلى الصدر.
(١٠) الجوارى: السفن.
(١١) نواصبها: مقدماتها. وفى الخيل: الشعر في مقدمة الرأس.
(١٢) القداح: السهام.
(١٣) الوعل: ماعز الجبل الوحشى
(١٤) العرباض: البعير الضخم
(١٥) شائلة: رافعة ذنبها.
(١٦) صائلة: واثبة جائلة
(١٧) حاكمها: ربانها
(١٨) برم الحبل ضد نقضه والاستعارة واضحة
(١٩) القاموس: البحر ويريد هنا لجة العظيم

قاصف، فمالت بنا الفلك[١] واضطربت، ودنت شفتها من رشف الماء واقتربت، واستمرت تعلوا عل الأوتاد[٢]، وتهيم في كل واد. وتضرم في الكبود نار ناجِر[٣]، إلى أن (**بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** [٤])... ثم نظر إلينا من لا تخفى عليه السرائر، وأمر الجارية[٥] بِحْمل عيده إلى بعض الجزائر".

ونزلوا الجزيرة وتنزهوا في رياضها ورأوا فيها نهر أرضه ذهب وحصباؤه درر. ويمضى ابن حبيب في الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذي يمتع الآذان والأذهان يجرسه وما بين الألفاظ من ملاءمات تجعل السجع يلذ الألسنة حيث تنطق به، ويسر القول حين تستمع إليه. وبق يقول ناصر الدين بن البارزى في الكتاب مقرظًا له: "لقد أشبه الدر في انتظامه، والثغر في ابتسامه، وقَطْرَ الندى في انسجامه، وزهر الروض في البُكَر إذا غنتْ على غصونه مطرياتُ حمامه.. فهو في اللطافة كالماء في إروائه، وكالهواء المعتدل في ملاءمة الأرواح بجوهر فائه، وكالسلك إذا انتقى جوهرة وأجيد في انتقائه". وقد ختمه ابن حبيب بفصلين بديعين في الحكم والمواعظ، ودائما يوشى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره.

(هـ) فاكهة[٦] الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه احمد بن محمد الدمشقى الحنفى ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيا، حتى كانت طامة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التتار لها وإشعالهم النيارن فيها، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول، ومنها رجلتُ إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور، وأستطونها ابن عربشاه مدة.. وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علمائها وأدبائها، واستقر في الأناضور أو آسيا الصغرى عند السلطان العثمانى محمد

---

(١) الفلك: السفينة

(٢) الأوتاد: الجبال

(٣) ناجر: أش أشهر الصيف حرارة

(٤) أي نبت عن أماكنها في الصدور فبلغت الحلاقم، والى كناية عن شدة ما أصاب القلوب من الفزع.

(٥) الجارية: السفينة.

(٦) طبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عراشه النجوم الزهرة ٥٤٩/١٥ والضوء اللامع للسخاوى ١٢٦/٢ وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب ٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه: "فاكهة الخلفاء".

الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاثة التي كانت يحسنها: العربية والفارسية والتركية، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذي اتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة، ويقال أن عدد حكاياته كان يزيد على الفى حكاية. وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثماني إلى الشام وأقام بحلب، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف. وهاجر على القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة. ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمور سماها عجائب المقدور في نوائب تيمور، وهى مسجوعة، وطبعت مرارا. وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة- كما اسلفنا- في العربية والفارسية والتركية، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوف سماه (مرزبان نامه" طبع قديما، وعنه نقل كتابه "فاكهة الخلفاء" نثر مسجوعا. وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة.

وكتابه "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء" يشتمل على حكايات كثيرة، وهى موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبى المحاسن حسان يرويها عن الحكيم"حبيب"، وهو الابن الصغير لملك، ترك خمس إخوة تملك أحدهم واطاعة إخوته، ثم دب الحسد في نفوسهم، فرأى أخوهم الصغير "حبيب" أعتزلهم، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة، فاستصوب رأيه غير أنه وزيرا له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أو كذبه. فجمع الملك أعيان الدولة علماءها وفضلاء أخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه في أسلوب قصصي مسجوع بديع، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة. والباب الأول في ذكر ملك العرب، ومعه أربع قصص: قصة الضحاك الملك الفارسى الأسطورى القديم، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التي حكمت طبرستان وجرجان في القرن الرابع الهجرى وقَتْل أعوانه له، وقصة بهرام جور الملك السماسانى الذي كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التي رآها وسرعان ما صادته- كما يقول ابن عرب شاه- بلظها المكسور فأمسى قلبه وهو في يدها مأسور وما كان من اقترانه بها، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذب فقدم الحمار مأدبة للكلاب. والباب الثاني في وصايا ملك

العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكمى ما جرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل. والباب الثالث في قصة خاقان الأتراك مع ختنه أو صهره الزاهد شيخ النساك. والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت. وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحاكم وما ينبغي أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان ما يأمل، ويأمن ما يحذر.

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كليلة ودمنة، وقد أشار إلى ذلك المؤلف في مقدمة كتابه قائلاً أن الحكمة إذا قيلت على ألسنة الوحوش وما غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت في مطالعتها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الأذن إلى استماع أخباره، وتلقتها الصدور بالانشراح، ونفوس الناس بالارتياح. وتخللت هذه الأبواب جميعا قصص بديعة، وكثيرة منها فارسي الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه في الماء والتقام بطة له زحزنه عليه ورجوعه إليه. وذكر في الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذي رآه يغرس في بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه في زرع غرسه ونصبه. وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكز خان الذي طم العالم بالفساد، وأهلك العباد والبلاد.

والكتاب زاهر بدقائق الحكمة والفطنة التي تهذب النفوس والتي تعود على الناس بالتهذيب في معاملتهم والعدل في حُكمهم والكسب في معاشهم والعمل الصالح لمعادرهم. ويلحُّ الكتاب على أن المال الذي في خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبغى أن يُنْفَق في مصالحها وحوائجها، وهو في يد الحاكم أمانةن وصرفه في غير وجهه خيانة. ويرسم الكتاب دائما لقارئه الأخلاق الحميدة والشمائل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه ع رفق ولين للمساكين، ومع صلاة في الدين. وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد في الحياة، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية. والكتاب مسجوع، غير أن لغته واضحة وقلما يكون فيها لفظ غريب. وقصصه رائعة، وحري أن تعرض على الناشئة مع إخلائها مما جاء في

بعضـها مـن ألفـاظ مفحشـة أو نابيـة. ولا نشـك فـي أن ابـن عـرب شـاه جلـب فيهـا مـن الأقاصيص خير مـا قـرأه فـي الفارسية والعربيـة مـن قصـص الملـوك والحكـام وعِلْيَـةِ النـاس وصـعاليكهم. ولابـد أن أضـاف إلـى ذلـك بعـض القصـص مـن خيالـه، وقـد رأى أن يحـاكى كليلـة ودمنـة بقصـص كثيـرة، كمـا أسـلفنا. والقصـص جميعـا تكـتظ بـالحكم علـى شـاكلة مـا قرأه فـي كتـاب سلوان المطـاع فـي عـدوان الاتبـاع الـذي ألممنـا بـه فـي حديثنا عـن الجزيـرة العربيـة، وقـد ذكـر ذلـك صـراحة فـي مقدمتـه للكتـاب وحِكمـه كحكـم هـذا الكتـاب تتـردد بـين الشعر والنثر.

وفـى الحـق أنـه كتـاب بـالغ الروعـة بمـا يعلـم مـن شـئون السياسـة والحكـم وبمـا يهـدى إليـه مـن البصـر بالحيـاة ومـا فيهـا مـن فضـائل تكتسـب، ورذائـل تجتنـب، ومـا أروع الحكمـة التـي أجراهـا علـى لسـان بعـض الملـوك فـي قولـه لأبنائـه ناصـحا: "يـا بنـى أكتسـبوا العلـم والفضـل وأدخـروا الحلـم والعـدل، فـإن أحتجـتم إلـى ذلـك كـان مـالا، وإن اسـتغنيتم عنـه كـان جمالاً".